إحياء الربانية

من أعواض الحج

مجموعة منتقاة من خطب الجمعة

لفضيلة العلامة الشيخ

أ.د/ أسامة محمد عبد العظيم حمزة

أستاذ أصول الفقه المتفرغ ورئيس قسم الشريعة الأسبق
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقـاهرة
وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر
رحمه الله ورضي عنه

دار الفتح

دار الفتح
للطباعة والنشر والتوزيع

ملحوظة:

- مادة هذا الكتاب نسخ للتسجيل الصوتى لخطب فضيلة الشيخ، لذا نعتذر عن أى تصحيفات فى النسخ، أو أخطاء مطبعية غير مقصودة.
- العناوين- الرئيسية والفرعية – إضافة وليست من أصل الخطب.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنِ الْحَمْدُ للهِّ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِّ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُّ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد.. فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالي وخير الهدي هدي محمد صلي الله عليه وآله وسلم، وشرَّ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

- خطبة الجمعة ٢ مايو ١٩٩٧ م

محاسبة النفس

- **محاسبة للنفس**

كم ألقيت إليك المواعظ ؟ وكم سيق إليك من العبر؟ فأين انتفاع نفسك بما سيق إليك؟ وأين تقربها إلى الله تعالى بما ألقي إلى مسامعك؟ كم شوقت إلى العمل الصالح؟

كم حُذِرت من انقضاء زمان ذلك العمل من غير سعي ؟

كم سيق إليك بعد ذلك من المواعظ؟

كم ألقي إليك بعد ذلك من العبر ؟

وقصد كل ذلك حشد قوى هذه النفس إلى الله تعالى..

نفسٌ تتنازع قواها الشهوات، وتجاذب طاقتها الأهواء، فلا تزال تلك النفس محتاجة إلى لطف من الله ﷻ سابق يباعد عنها تلك الشهوات، ويمانعها من مجاذبة الأهواء والنزوات.

لو ذهبت العبر، وانقضت المواعظ.. فكيف تبقى النفس بعد ذلك كله؟ كيف تبقى النفس بعد ذلك كله بليدة غير متأثرة ولا متأسفة ولا متحسرة؟

ذهب رمضان وذهبت الخيرات التي كانت في أيامه ولياليه..

ثم ذهب الحج بمن شاء الله ﷻ أن يقسم ذلك العمل الصالح له، ثم جاءت أيام بعد ذلك وفي أثناء ذلك تنادي على المكلفين: أيها السعاة إلى الله هلموا إلى ربكم، اغتنموا أوقات زمانكم، لا تبرحوا باب مليككم!!

إن انفتاح باب الخيرات لمرتبط بطول القيام والإلحاح بالدق على ذلك الباب. وإن من يستعجل فلا يطول قيامه، ولا

يتكرر طرقه لباب ربه، ما عسى أن ينال إذا أجاب داعي الشهوات والنزوات؟! وأعرض عن أسباب فلاحه، وترك الوقوف بباب رب الأرض والسموات.

- **السير إلى الحج من الآن**

إذا ذهب الحج وذهبت أيامه، فقد بقي بعد ذلك السير إلى الحج من الآن. وإذا ذهب رمضان، وانقضت خيرات كانت في أيامه ولياليه. فقد بقي بعد رمضان السير إلى رمضان من الآن.

إحساس بفقد خيرات وطاعات كانت النفس أملت تحصيلها، ينتج ذلك الإحساس أسفا وتحسرا، فتظل النفس بأسفها وحسرتها منكسرة واقفة بباب الله تعالى لا تسأم ولا تبرح.

ثم نادى منادي العمل الصالح بعد ذلك لما إليه لا تلتفتون من الأعمال، ناداك منادي العمل الصالح أن ذلك الحج ذا الأسفار والنفقات والغربة عن الأهل والأوطان، أن ذلك يوصل إليه بحج متكرر في يومك وليلتك، وفي إصباحك وفي جمعتك. وبلغتك الموعظة في ذلك، وكان حق هذه الموعظة أن تستتبع تغييرا في الحال، وأن تستتبع كذلك وقفة مع النفس.

- **عامل إصلاح متكرر**

ناداك منادي العمل الصالح أن في إصلاحك الصلوات المكتوبات واتباعها بالأذكار المخصوصات، أن ذلك يبلغ بك، فتدرك من سبقك، ولا يبلغ شأنك من بعدك، ويكون ذلك بمجرده عامل إصلاح متكرر حتى تكون خير من أنت بين ظهرانيه.

كيف صنعت فيك هذه الموعظة؟ هل وجدت بعدما صليت وقصدت إلى ذلك العمل الصالح، هل وجدت لذلك الذكر أثرا وطعما غير الذي كنت من قبل تجده؟ وهل كنت من قبل تتفكر فيما لذلك الذكر من الثواب العظيم. هل أدلكم على ما إن فعلتموه «لحقتم مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْه» ذلك الفضل كله لما لا يعظم الناس وإليه لا يلتفتون..«تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ».

لحقتم بذلك إن أنتم أحسنتموه، «لحقتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْه»

ألا ترى أن الشرف المذكور على هذه الأعمال يستدعي توقفك معها وسعيك لإصلاحها، وتحيلك لتفريغ القلب والنفس لها لتلحق من سبقك، فإذا أنت بأشواقك وعزائمك ونياتك بين

أصحاب النبي ﷺ ومن جاء بعدهم، ومن تبعهم. « لحقتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ».

وإذا إصلاحك لهذا الذكر قد شحذ من عزيمتك، وساق إليك مددا من أمداد ربك، فإذا ما يتعسر ويتصعب عليك من الأعمال الصالحات، إذا ذلك كله قد أصبح مسوقا إليك من غير سعي، مقربا إليك من غير جهد. «وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْه».

وإنما يكون ذلك بتسبيح لا يفقد المسبح معناه، وتحميد يغتنم الذاكر فضيلته في مداواة جروح باطنه، وتكبير يكون به لجوء العبد إلى ربه، وتعظيمه لأمره ونهيه، وعزيمته المؤكدة المكررة على الوفاء بعهده.

ثم هو كلما سبح تذكر مع تسبيحه عظمة ربه وتقدسه ﷻ عن مشابهة خلقه، وأن ما يجري بأمره وحكمه، فذا دال على

جلاله وكماله، وأنه كلما حمد ربه تذكر ما ينقم من أمور نفسه، وأن ذلك بكسب العبد، وأن ذلك بعدل ربه، وأن ذلك بظلم العبد نفسه، وأن حكم الله تعالى ولطفه في ذلك سابق وغالب. فيصادف حمده جراح نفسه، فتلتئم مع كل حمد جراحة، فإذا قلبه قد امتلأ بتعظيم ربه، والثناء عليه بما هو أهله، فما ينفك من مقعد ذكره إلا وقد اجتمعت قوى قلبه على محبة ربه. فإذا صار إلى التكبير علم أن ذلك التكبير الذي هو ابتداء الصلاة وشعارها، أن ذلك يعني تحرير قلبه، وتصحيح عبوديته، وتجريد توحيده لربه، فإذا هو كلما كبر الله ﷻ انهدم وثن من أوثان الدنيا والشهوات والنزوات، فما يبقى معبودا له إلا الله تعالى، فكلما قال الله أكبر، هوى معبود ومخوف ومرجو من دون الله تعالى، الله من كل ذلك أكبر مما

يُعبد من دونه، ومما يُخاف من سواه، ومما يرجى من غيره، فالله من كل ذلك أكبر.

فيقوم من مجلسه ذلك، وقد امتلأت أرجاء نفسه بتوحيد ربه وتمجيده، فما يبقى معظما أحد سواه، وما يبقى مرجوا ولا مخوفا، ولا مهابا ولا في محل الإجلال أحد إلا الله ﷻ.

بذلك تلحقون من سبقكم ولا يدرككم أحد جاء بعدكم، ويظل ذلك الذكر الذي ينبغي أن تعظموه، وأن تفرغوا القلب والذهن له، فإن له من القيمة ما للصلاة إذا كان تكميلها، وإذا كان محل أن تُستدرك فيه أذكارها، وأن تُستكمل فيه أعمالها، فإنه أن ينال من التعظيم مثل ما تنال الصلاة، وحقه أن يُنتج بعد ذلك زادا يكون قوة على طاعة الله تعالى بين الصلاتين، ليكون منه إعانة على إتمام الصلاة التي بعدها.

- **حج يومك وعمرة كل صباح**

ثم حج يومك وعمرة كل صباح من إصباحك، ماذا صنعت النفس مع ذلك، وقد آتاك في ذلك الخبر الصحيح: «مَنْ صَلَّى الصبح فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَّ تعالى حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ.»

لم يلفت نظرك تأكيد النبي ﷺ بتمام الحج والعمرة بهذا التكرير اللفظي ثلاثا حتى لا يذهب وهمك إلى أن ذلك ضرب من المجاز أو التقريب، أو الحث على ذلك العمل والتحضيض من غير أن تتم لذلك وظيفة الحج والعمرة. فلا يذهب وهمك إلى ذلك، وانتفع بذلك التأكيد من النبي ﷺ، وحاسب النفس على فوت ذلك، فإذا فوتت حجة وعمرة، ليس على المجاز ولا على التقريب تحصيلها، بل على القطع والتأكيد وجودها،

فإنها لحجة وعمرة «تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ.» أفلا يستدعي ذلك أسفك إذا ما فات ذلك منك؟ أفلا يستدعي ذلك غضبك من نفسك إذا هي هونت من شأن ذلك المجلس وذلك العمل.

أفلا يستخرج ذلك من نفسك عزيمة مؤكدة وهما شديدا لتحصيل ذلك، يكون ذلك الهم من سابق الزمان على زمان ذلك الفعل ليصلح ذلك ليلك حتى يكون بذلك إصلاح ابتداء نهارك لتفرغ نفسك من الشواغل، بل لتستهين بكل ما يدافع ذلك الفضل، وما يزاحم ذلك الثواب.

أفرأيت لو فاتك، فكيف بربك تعوض غيره ؟ كيف تنال مثل ذلك الثواب بغيره ؟

فإذا فاتك فإنه يفوت إلى غير عوض، فإذا فات وخلف من بعده الأسف والحسرات، فعسى ألا يفوت بعد ذلك، لكن إذا فات لا إلى عوض، حتى الأسف والحسرات، فهذا ما

ينبغي أن يقلقك ويزعجك لسوء الحال لسوء الحال التي صارت إليها النفس.

فإنه إذا فات ولم يخلف الأسى ولا الحسرات، فكيف تناله ومن أين تبلغه، وقد تبلدت أحاسيس النفس فلم تعد تتألم لما تفقد من القربات، ولم نعد تتأسف لما يفوتها من الخيرات.

قد تجمعت قواها كلها على النزوات والشهوات، ومن ثم تعلم من أين جاءت هذه المصيبات ؟

من توجه النفس إلى الشهوات، ومن تجمع قوى القلب على الحظوظ الفانيات، فهي محل الأسف إذا فاتت ومحل الفرح والسرور إذا حصلت، فذا يستدعي وقوفك مع نفسك، ويستدعي لزوم فطامها عن الشهوات، وحرمانها من النزوات التي قعدت بها حتى عن التأسف على فوت الطاعات والقربات.

ألا ترى أن فوت حجة وعمرة كل يوم أن ذلك مصيبة أليمة شديدة، وأن ذلك العمل الصالح لا سبيل إلى تعويضه، فكيف يهنأ لك بال طوال يومك، وقد فاتك زادك لإصلاح ذلك اليوم، وقد فاتك قوتك على العمل الصالح فيه. إن هذا في ذلك المجلس لا في غيره.

- **الجمعة حج المساكين**

ثم بلغتك موعظة الجمعات البلاغ المتكرر المتأكد، وأنها حج المساكين، وأنها حجة مبرورة متقبلة. والظن أن تعلم الآن كيف لا تجد من نفسك السبيل إلى إصلاحها، فإن إصلاحها لمنبن على ما قبلها، ولموقوف على إتمام الأعمال الصالحات التي تترتب الجمعات عليها.

فالجمعات حصيلة الصلوات المكتوبات، وحصيلة الأيام الكاملات، فمن أصلح الصلوات المكتوبات هان عليه، تيسر

له إصلاح الجمعات، ومن أصلح في كل يوم ابتداء ذلك اليوم بصلاته الصبح في الجماعة وإتمامه مجلس الذكر إلى أن تطلع الشمس وصلاته هاتين الركعتين، لو صنع ذلك كل يوم، فانصلح له كل يوم، فكيف تتأبى عليه الجمعات أن تنصلح بذلك.. إن ذلك يعني انقياد الجمعات له.

أرأيت ما الذي قعد بالناس عن التبكير إلى الجمعات ؟ أرأيت ما الذي غيرهم إلى التأخير عن القربات وقد علموا أن ما في الجمعة من القربات إذا فات لا يُعوض؟ فإن المبكر إلى الجمعات وأنتم تعلمونه، من راح منهم في الساعة الأولى «فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً»

تسمعون ذلك وتعرفونه، فهل تتألمون على فقده وفوته ؟ فهل تتأسفون على الذهاب المكرر له؟ كل جمعة يفقد ذلك. كل جمعة لا يكون. تسمعونه فلماذا لا تتحسرون ؟ لماذا لا تتألمون؟ ولو علم امرؤ أن ذلك لو فات لا يرجع أبدا فظل يومه حزينا على فقده، آسفا على فوته، فانكسر لذلك قلبه لربه، وعلم أن ذلك من سوء فعله، فاستغفر لربه ﷻ من ذنبه ودعا ربه، فعساه إذا جاءته الجمعة الأخرى أن ينال ما أمّل، وأن يجد ما فقد، وأن يحصل ما فاته، وإلا فمع فقد مكرور وحرمان مستمر لا يبقى في القلب أسف عليه، ولا حزن على حصوله، فإن ذلك ليدلك على أن أسفك إنما ضار على الحظوظ الفانيات، وأن تألمك للفقد إنما هو لفقد الشهوات فأعلم أنه لابد من فطام نفسك عن الحظوظ والشهوات والعادات المرذولات.

- **تحصيل مقاصد الحج**

ومن فاته الحج فتأسف على فقده، كان من شأنه أن يتلفت إلى مقاصد الحج لتحصيلها. فإذا كانت عبادة ذات مناسك معلومة، فإن لتلك المناسك أغراضا ومقاصد. فإذا فات التشرف بتلك المناسك فلا يفوت ما توصل إليه من الأغراض والمقاصد.

وإن مقصود ذلك النسك رحلة القلب إلى الله، وتوطنه في مقام الطاعات، وسآمته من الغفلات والشهوات، وانتزاعه من المخالفات والسيئات. فمن فاته ذلك النسك، فحقه أن يجعل أغراضه ومقاصده نصب عينيه، يتكلفها ويسعى إليها، ويسلك السبل لتحصيلها.

قال بعض السلف : **ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمائة حجة.**

فإذا كان الحج إلى البيت الحرام من أفضل الأعمال، وكان عوض الجهاد للعاجزين عنه، الفاقدين لآلاته وأسبابه، فإن لذلك النسك غرضا.

إن من أغراض ذلك النسك الانفكاك عن الحرام بالفطام عن المباح من الشراب والطعام وغير ذلك. فإذا كانوا في الحج يتعففون عن الحلال من الشهوات، فإن مقصود ذلك التوصل إلى ترك المحرمات. فمن تأدى منه ذلك النسك ولم يزل في كسبه شيء من حرام، فما بلغ غرض تلك المناسك.

ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمائة حجة.

ذلك الحج المتكرر الذي لا يكف النفس عن الحرام، ولا يحجزها عن الشبهات والمكروهات والآثام.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَّ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَّ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به

المُرْسَلِينَ، فقالَ: (يا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صالِحًا، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) [المؤمنون:٥١] وقالَ: (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ) [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلى السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأَنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟

فإذا كان طلب الحلال فريضة بعد الفرائض، وكان التماس أطايب المطاعم شريعة تعبد الله ﷻ بها المؤمنين، وجعل لهم قدوة في الأنبياء والمرسلين. فإن تفويت ذلك يعني ضياع الأعمال، وانبناءها على غير أساس وثيق. فإن أساس هذه العبادات ما يقوم بفعلها من الغذاء والطعام والشراب. فإذا كان ذلك حلالا بقي الجهد في إصلاح تلك العبادات،

والوصول إلى مقاصدها. وإذا ذهب ذلك الأساس لم يكن للبنيان وجود أصلا.

فهذا الرجل الذي يطيل السفر أشعث أغبر قد أتى بعبادة شق فيها على نفسه، وترك فيها أسباب راحته، فحصل صور التجرد والإخلاص في الظاهر، لكن فاته أن ينبني ذلك على أساس حلال. فهو يرفع يديه طالبا داعيا، متوسلا بظاهر ذلك العمل. هويطيل السفر أشعث أغبر لكن لما كان مطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام كان أبعد شيء عن إجابة دعائه، فأنى يستجاب لذلك ؟

ومجانبة الحرام تعني السير قبل ذلك في طريق معلوم من طرق الصدق في معاملة الله ﷻ. فلا يبلغ العبد أن يتجنب الحرام حتى يتجنب قبل ذلك المكروه ولا يبلغ أن يتجنب المكروه

حتى يبلغ ما فيه احتمال وشبهة، حتى يدع الاستكثار من المباح. فإذن سيره إلى الخلاص من هذه الآفة يلزمه.

أولا : بالتعفف عن المباح والاستكثار منه. فإن أول الداء محبة ذلك المال "وتحبون المال حبا جما"، "لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال". فأول الإصلاح الزهد في ذلك المال، والشح بالأوقات أن تبدد في تحصيله إذا حصل ما فيه كفايته.

"قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه".

فمن فاته ذلك وسعى بعد تحصبل الكفاية في طلب مزيد من المال فقد ضيع ذلك الزمان الذي لا يعوض، وفوت شرف التقرب إلى الله تعالى بالعبادات في هذه الأوقات، ففات مقدار من تقوى الله تعالى بحسب ذلك. فإذا فعل ذلك فإنه لا يملك نفسه ـ إذا ألقي في قلبه محبة المال ـ أن بتورع من أي جهة نال ذلك المال. فيقع بذلك في الشبهات " والحلال بين والحرام

بين وبنهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتفى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه". واتقاؤه الشبهات إنما ينبني على ورع في قلبه وخوف.

فليت من فاته الحج يتفكر في مقاصده، وليت من فاته التشرف بتلك المناسك أن يسعى إلى مقاصدها.

فليت من فاته الحج أن يفتش فى طرق سعيه ومعاشه حتى تكون عاقبتها السلامة مع الضبط الشديد والاستقامة فحسبه تأخره عن دخول الجنة. "الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام" وذلك أن من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه لم يبق عنده ما عليه يسأل " من أين اكتسبه وفيم أنفقه" أما ذلك الذي بعدما أسلم جمع تلك الأموال الطائلة فإته لموقوف في الحساب يسأل عن تلك الأموال وما بذل فيه من النفقات.

فليته أن يتشوف إلى الحج إذا حصل مقاصده، لينه يصلح سيره إلى تعالى بتنقية أمواله من الكسب الحرام، فإن قبول عبادته لموقوف على ذلك. فإن من أطال السفر أشعث أغبر فمد يديه إلى السماء لم يقبل منه لذلك الحرام في مطعمه ومشربه وملبسه وفيما غُذى به بدنه.

- **التفكر فى انقضاء الزمان**

أوشك عام هجري أن يذهب عنك ويولي، فهل تفكرت في شهادة ذلك العام عليك، وأوشكت أيام ذلك العام أن تنقضي، فهل تذكرت أن ذلك كله اقتطاع من عمرك، ودنو من أجلك، وتذكير لك بقرب لقاء ربك واعلموا أنه كلما انقضى جزء من الزمان فذلك من غير شك اقتطاع من الآجال، وقرب من الوصول، توشك أن تصل إلى ربك.

فهل تفكرت في عبرة مرور الأيام وانقضائها ولزوم أن تودع كل يوم من أيام دهرك عملا يقربك إلى ربك، وأن ذلك اليوم شهيد عليك يوم القيامة. وهل تذكرت أن قرب انقضاء ذلك الحول يعني اهتماما شديدا منك بإصلاح ختامه، فإذا أصلحت ختام ذلك الحول، فأُعنت على إصلاح ابتداء ما يكون من العام الذي بعده، فلعل الله ﷻ يرى عملا صالحا في الابتداء والانتهاء، فيكون ذلك شفيعا لمحو ما كان من السيئات فيما بينهما من الأزمان.

حق ما بقي من أيام هذا الحول الهجري أن تملأها بالأعمال الصالحات، وأن تشغلها بما يقربك إلى الله ﷻ من الطاعات، وأن تعتزل لها فيما بقي من الأيام الحظوظ والشهوات، فعساك إن أصلحت ما بقي من ذي الحجة، أُعنت على إصلاح ابتداء شهر المحرم، فيكون ذلك تغيرا من حالك، وإقبالا على

ربك، وانتفاعا بما يلقى إليك من المواعظ، وما يساق إليك من العبر. وقد علمت أن الإصلاح انتهاؤه النفس وابتداؤه منها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

[الرَّعد: ١١]

وليكن ذلك في إصلاح ما بقي من أيام ذي الحجة، أسفك على ما حصل من التفريط والتقصير في رمضان، وحزنك على فوت موسم الحج من أن تكون من المتعرضين لرحمة الله والمسافرين إلى الحج والعمرة، وألما على فوت أيام ذي الحجة من غير أن تضمنها ما كان ينبغي من الاجتهاد في العمل الصالح والصيام والقيام وقراءة القرآن وذكر الله عز وجل فيها. ليكون أسف وحزن وألم وسيلتك إلى انكسار قلبك وذل

نفسك وخشوعها لربك ﷻ حتى يستدعي ذلك لطفا من الله تعالى لك، ورحمة من الله تعالى تنالك تكون سببا لإعانتك على إصلاح ما بقي من أيام ذي الحجة، وعلى اتباع ذلك بإصلاح ما تستقبل من أيام شهر المحرم.

أيام دهرك رواحل تسير بك إلى ربك، وحوامل تحملك إلى أجلك. فليكن سيرك إلى ربك متناسبا مع أيام دهرك، فلا يذهب يوم من أيام دهرك إلا وقد سرت فيه إلى ربك، وتقربت إليه بما يكون أسباب نجاتك، وفلاحك في الدنيا والآخرة. فاللهم تجاوز عنا عما كان منا في أيام ذي الحجة.

● خطبة الجمعة ١٩ مايو ١٩٩٥

الْجُمُعَةُ حَجُّ الْمَسَاكِينِ

ظننتك لما ذهبت أيام ذي الحجة، ورفعت صحائف الأعمال بما فيها، ظننتك مشغولا بالتدارك لما فاتك، مهموما بإصلاح ما عرض لك من الآفات. وظننتك لما ذهب الحجيج ورجعوا تفكرت فإذا حظهم ثواب عظيم وفضل كبير ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

وظننتك مشغولا بإدراك ما فاتك ولحاق من سبقك واستكمال ما نقص من أحوال عملك. وظننتك متفكرا فيما كان عليه السلف من السباق للخيرات، وما كانوا عليه من همم رفيعات عاليات. ألم ترى إلى ما قالته أم المؤمنين عائشة

رضى الله عنها: نَرَى الجِهَادَ أَفْضَلَ العَمَلِ، أَفَلاَ نُجَاهِدُ؟ تلك كانت هممهم، أو قل همم نسائهم مع أنهن معفيات من ذلك إلا ما للجهاد من فضل وما للجهاد من ثواب، إن هممهن لم تقعد عنه. فأستأذنَّ رسول الله ﷺ في الجهاد، أَفَلاَ نُجَاهِدُ؟ حتى يأتيهم من رسول الله ﷺ ما به يكون بلوغ ذلك الثواب. وأظنك ما غاب عنك قول الحسن: "إذا نافسك أحد في الدنيا فنافسه في الآخرة". فظننت همتك مشغولة عن الاستكثار من جمع الحطام الفاني، ظننت همتك متوجهة إلى التنافس في الآخرة، وجمع ما يكون أسباب النجاة في الآخرة والفلاح في الدنيا.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله تعالى فافعل. وقال بعضهم من علم أن غيره أفضل أو أقرب إلى الله ﷻ أو أكثر عملا منه كان ينبغي أن يحزنه ذلك. وذلك أن هذه

الدنيا ممر للآخرة ومعبر إليها، فالفقيه الفقيه والعاقل العاقل من اغتنم ما فيها من الساعات والأوقات حتى يتزود بها هو عنه غير منفك وهو لا شك آت، والعاجز العاجز من ركن في هذه المدة الوجيزة إلى شهواتها، واشتغل بما فيها من الحطام الفاني، فذاك قد ذهب عنه حسن اختياره، وضل بما غلب عليه من شهواته وحظوظه.

فإذا كان هم الآخرة شغل قلبك، والحزن على ما فات هو الصفة الملازمة لك، والاهتمام بالاستدراك هو الوصف الذي لا يفارقك، فظننتك مشغولا كيف تدرك ما فات من ثواب الحج والعمرة؟ وكيف تنال ما فات من ثواب الاجتهاد في الأيام العشر المباركات ؟

وقد سبق إلى رسول الله ﷺ وفد الصالحين من أهل الدين، فقالوا: فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأجور يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي،

وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالهم به يَحُجُّونَ وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ.

همّ المشغول بمعاده، فكر من علم أنه في الدنيا للتزود، لا للتمتع، وأنه في الدنيا للزرع، وأن الحصاد غدا.

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن طيّب نفوسهم فقَالَ: «**أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ- أو أونبئكم - بما لو فَعَلْتُم أَدْرَكْتُمْ به مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ**» أو كما قال ﷺ. فدلهم ﷺعلى التسبيح دبر الصلوات.

وحُكي عن بعض السلف أنهم سمعوا أن رجلا أنفق أموالا طائلة في سبيل الله ﷿ فاجتمع الفقراء المتعبدون فأحصوا ما أنفق، وعزموا على أن يصلوا في مقابل كل درهم ركعة لله تعالى. فإن تقرب المتقربون بالأموال فإن لمن عجز عن الأموال، لمن لم يقدر على بذل المال، إن أمامه وعنده التقرب

إلى الله تعالى بالذكر والصيام والصلاة والقيام وعبادة الله تعالى.

فكان أول ما يصلح هذا الحال، ودل على ذلك قوله ﷺ: «وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ» كان من أول هذه الوظائف إصلاح التسبيح دبر الصلوات، وهو يعني سبق ذلك بإصلاح الصلوات المكتوبات، حتى يطابق هذا الذكر محلا مناسبا له.

فأما من فرط في الصلوات، أو ضيع ما للصلوات من الآداب والسنن، فإذا سبح لم يجِدِ تسبيحه شيئا مع اتساع وكثرة الخرق وكثرة ما أصاب الصلاة من الخلل. فأما مع الاجتهاد في إصلاح الصلاة واتباع سنة النبي ﷺ فيها فالتسبيح دبر الصلوات «أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ» إلا

من قال مثلما تقولون. يعني «وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ».

وظيفة من وظائف العبادة متكررة، لكنها أشبه ما تكون بالوظائف المعطلة المهدرة، تسبيح دبر الصلوات فما وافق نطق اللسان من حال القلب، هل فكر أحد في ذلك. التسبيح المكرر دبر الصلوات إن وظيفته استدراك ما فات من ذكر الله ﷻ في الصلاة، فسبحان الله تكميل تسبيح الركوع والسجود، والحمد لله تكميل القراءة وذكر الرفع من الركوع، والله أكبر تكميل تكبير دخول الصلاة وتكبيرات الانتقال.

وإذا كان حق هذه الأذكار إذا كانت في الصلوات أن تكون شفاء للصدر وذهابا للهم ونقاوة للقلب وإصلاحا للباطن، فإن وظيفة التسبيح دبر الصلوات استدراك ما فات من هذه المعاني واستكمال مالم تبلغه هذه الأذكار إذا صادفت محلها،

ووقعت في موضعها. فوق كون هذا التسبيح من المعقبات التي لا يخيب فاعلهن أو قائلهن، فإن في الحديث «**مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ -أَوْ فَاعِلُهُنَّ-** » فذكر منهن ﷺ ثَلَاثا وَثَلَاثِينَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثا وَثَلَاثِينَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعا وَثَلَاثِينَ تكْبِيرَةً.

وظننتك تلتفت إلى وظيفة التسبيح دبر الصلوات حتى يكون ذلك إصلاحا للصلاة إتماما لها، فإن الصلوات المكتوبات «مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِر».

وإذا فات الحج فإن أعواض الحج لم تفت، وإذا فُقد السير إلى البيت الحرام وإلى مسجد النبي ﷺ، فقد بقي السير بالهمم إذ ذهب السير بالأبدان. بقي سير المكلفين بهممهم إلى الله تعالى إذا أصلحوا صلواتهم وتأسوا برسول الله ﷺ فيما كان يفعل، سافروا بهممهم، ورحلوا بأعمالهم، فكان ذلك

تعويض ما فاتهم من السير إلى البيت الحرام، وإلى مسجد النبي ﷺ.

فمن فاته الحج الأكبر والعمرة مع الحج، فكيف يفوته حج مكرر وهو إصلاح فريضة الصبح وإصلاح ما بعدها من الأذكار المسنونات، ففي السنن «مَنْ صَلَّى الصبح فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَّ تعالى حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَة تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّة».

تعويض كريم من رب رحيم، فمن فاته الحج والعمرة، فإن له أن يحج كل يوم من هذه الأيام ويعتمر، حتى إذا جاء موسم الحج الأكبر، فكيف يُرد من تكررت منهم هذه الحجج، ومن تكررت منه أفعال العمرة كل يوم. وفعل ذلك على من يسره الله ﷻ عليه يسير، إنه يسير على من يسره الله ﷻ عليه.

«مَنْ صَلَّى الصبح فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَّ تعالى حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ» وهذا يعني إصلاح الفريضة أولا وإتمام ما يلزمها من الآداب والسنن، ويعني ثانيا إصلاح ما بعدها حتى تكون هذه الساعة ساعة التزود بعمل النهار والتفكر فيما كان قبل ذلك النهار، يتفقد المرء في هذه الساعة أحواله، يتفكر فيما سبق في أمسه، ويعزم على التوبة والاستقامة وذكر الله ﷻ في يومه، فيكون في هذا المجلس، وزادا على إصلاح ما هو آت. فمن فعل ذلك فشكر الله تعالى على هذه النعمة بنعمة أخرى، شكر الله تعالى على هذه العبادة بعبادة أخرى فصلى ركعتين يستشعر فيهما منة الله ﷻ عليه بما كان، وأن ذلك فضله وعاؤه، وإحسانه، ويتقدم إلى ربه بالرجاء أن يديم عليه هذه النعمة، وألا يقطعها عنه، فإذا فعل ذلك «كَانَ لَهُ أَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَة تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّة».

ومما عوض الله ﷻ به المحبوسين عن الحج، مما عوضهم به إصلاح جمعاتهم، ففي بعض الأحاديث: « الْجُمُعَةُ حَجُّ الْمَسَاكِينِ».

وقال الحسن: شهود الجمعة أحب إليّ من حجة تطوع. وأنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ جعل المبكر إلى صلاة الجمعة كثواب المهدي بدنة، وجعل التالي له في التبكير إلى الصلاة كالمهدي بقرة ثم من جاء بعد ذلك كالمهدي كبشا أقرن، ثم كالمهدي دجاجة، ثم كالمهدي بيضة.

فمن راح في الساعة الأولى «فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً».

فإصلاحكم جمعاتكم سبيل استدراك ما فات، في ذلك تعويض ثواب الحج والعمرة، وقد علمتم أن الجمعة إلى الجمعة مُكَفِّرَاتٌ لما بينهما « إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِر». فظننتك قد جمعت عزيمة قلبك على إصلاح الصلوات المكتوبات، وعلى الاهتمام بجماعة الفجر والبقاء بعدها في مجلس الذكر تأسيا برسول الله ﷺ.

وأما الجمعات، فلا يزال تأخر الناس عنها، وعدم اهتمامهم بها، لا يزال محتاجا، بعد إن عجزت القوى، فلا نزال محتاجين إلى ألا نعجز في الدعاء، وألا نقعد عن الرجاء، وأن تلجأ القلوب إلى الله تعالى أن يدفع الشواغل والموانع والقواطع حتى يحصل من جماعة الخير تعظيم الجمعات وإصلاح وظائفها إذا كانت أحب إل السلف من شهود حج التطوع، فذلك لما فيها من تكرر يصلح ما تكرر من الذنوب، ويداوي

ما توطن من الآفات والعيوب، ويكون فرصة لتفكر العبد في وظائف أسبوعه وجمعته، ويكون فرصة عظيمة للتعرض لساعة الإجابة، فإن «فِي الجُمُعَةِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي لله تعالى، يَسْأَلُ اللهَّ حاجة إِلَّا آتَاهُ إِيَّاها».

فلذلك إذا كان في الحج قبول الدعاء، ففي الجمعة التي هي حج المساكين ساعة إجابة لا يرد فيها الدعاء. في الجمعة التي يُغفر لمن شهدها يومه وعشرة أيام ما بينه وبين الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام، ففي ذلك تعويض للمساكين الذين لم يحجوا.

وفي تاريخ ابن عساكر عن الأوزاعي قال : مر موسى بن ميسرة بن حنبل بمقابر باب توما فقال : السلام عليكم يا أهل القبور، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، رحمنا الله وإياكم، وغفر لنا ولكم، فكأن قد صرنا إلى ما صرتم إليه.

إلى هنا والحكاية عادية، حكاية من يزور المقابر ويسلم على أهلها، ويحصل له من العظة والاعتبار بزيارتها ما هو منشود، ويقول: فكأن قد صرنا إلى ما صرتم إليه. إنها لمدة يسيرة مدة الحياة، ونوشك أن نصير إلى ما صرتم إليه من لفناء. فكأن قد صرنا إلى ما صرتم إليه. فسمع مناديا يجيبه: طوبى لكم يا أهل الدنيا تحجون في الشهر أربع مرار. فقال: وإلى أين يرحمك الله. قال: إلى الجمعة، أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة. قال : وما خير ما قدمتم. قال: الاستغفار يا أهل الدنيا. قال: فما يمنعك أن ترد على السلام. قال : السلام والحسنات قد رفعت عنا، فما في حسنة نزيد ولا في سيئة ننقص. قد غُلقت علينا رعوننا يا أهل الدنيا. وأما جواب ذلك المنادي فجواب على جميع الخلق ينادي: اعرفوا نعم الله ﷻ التي أنتم فيها، واغتنموا مدة بقائكم في الدنيا، فكأن قد صرتم إلى ما صار

إليه أهل القبور. مصير لا انفكاك عنه ولا فوت ولا فرار، فتنعموا بنعم العبادة في مدة بقائكم في الدنيا.

طوبى لكم، تحجون في الشهر أربع مرار. فلما تعجب السائل من ذلك، والحج إنما يشرع في العام مرة واحدة. فقال: إلى أين يرحمك الله، فأجابه المنادي: إلى الجمعة. أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة.

وكأنه يقول لنا وأنتم عنها تتأخرون، وأنتم في تحصيلها تتوانون، وأنتم عن ثوابها والتسابق إليها تتكاسلون، وأنت عما يشغلكم عنها ويعطلكم عن السير إليها تتنافسون لا تتباعدون.

طوبى لكم يا أهل الدنيا. لازلتم فيها، وتوشكون لا حول ولا قوة إلا بالله، كل بأجله يوشك الجميع أن يصيروا إلى ما صار إليه أهل القبور.

تحجون في الشهر أربع مرار، فهل تحجون فهل تحجون ؟ فقال: إلى أين يرحمك الله ؟ قال : إلى الجمعة، أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة ؟ ثم سأله : وما خير ما قدمتم في الدنيا. قال: الاستغفار. الذي يعني إقرار العبد بذنبه وتوبة العبد إلى ربه وعزيمة العبد على طاعة الله ﷻ.

قال: فما يمنعك أن ترد السلام. قال : السلام والحسنات قد رفعت عنا. لكنها لاتزال باقية لكم. يا أهل الدنيا إن أصحاب القبور يتأسفون يتحسرون، فما في حسنة نزيد ولا في سيئة ننقص. قد غلقت علينا رعوننا. فعساكم أن تكونوا مشغولين باستدراك ما فات.. عساكم أن تتعرضوا لرحمة رب الأرض والسموات.. عساكم أن تغتنموا ما أودعكم الله تعالى من الساعات والأوقات . فاللهم يسرنا للعمل الصالح وأعنا عليه. اللهم يسرنا للعمل الصالح وأعنا عليه.

- خطبة الجمعة ٤ يونيو ١٩٩٥ م

قابلْ اللَّهَ فِي بِرِّهَا

ظننتك متفكرا في ما فاتك من العبادات والطاعات.

وظننت حلاوة تشوقك للحج ما زالت في قلبك، وظننت حسرة فوت الحج منك لا يزال ممسكا بنفسك غير تارك لها.

وظننتك متفكرا بعدما ذهب الحجيج ورجعوا بمغفرة من الله ﷻ وعفو منه، ظننتك متفكرا في حالك وماذا نالك من فضل الله تعالى في ذلك، وما عساك أن تدرك به هؤلاء السابقين، وأن تنال به درجات المقربين المفلحين. وظننتك مشغوفا بمعرفة تلك البدائل التي هي سبيل التعويض لما فات وسبيل الاستدراك وبلوغ الآمال فيما هو آت.

فإذا كان الحجيج وفد الله المكرمين وحزب الله المقربين، وجماعة الإيمان المقبولين فإن لمن حيل بينه وبين الحج وسائل تقربه من ذلك وعساه إن أدام الوقوف بالباب ألا ينصرف حتى يُفتح له. وقد علمت من ذلك أمورا عساك أن تكون ممسكا بها محافظا عليها، ومن ذلك كذلك بر الوالدين وإكرام الأمهات.

ففي الحديث أَن رَجُلا جاء إلى رَسُول اللَّهَ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي الجِْهَادَ وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، فقَالَ له رسول الله ﷺ: «هَلْ بَقِيَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ؟» قَالَ: نعم، أُمِّي، قَالَ: «قابْلِ اللَّهَ فِي بِرِّهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌّ وَمُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ».

قلوبهم بالخيرات كانت مشغولة، وعزائمهم بالطاعات كانت مشحونة، فما في شهوات الدنيا كانوا يستغرقون، ولا في

ملذاتها ونزواتها كانوا يطمعون أو يؤملون. بل شهواتهم في درجات الآخرة والمقربات من رب العالمين.

حتى من اشتهى شيئا من ذلك، وعجزت دونه قوته وطاقة نفسه، فعسى أن يجد عند رسول الله ﷺ ما به يبلغ ذلك أو عسى أن يجد عند رسول الله ﷺ من الأعمال ما يكون بدلا عنه.

فهذا الصحابي الجليل بث لرسول الله ﷺ شكواه من نفسه في أنه يشتهي الجهاد لما في الجهاد من مدافعة الكفار والبيان عن الله ﷻ والبلاغ عن رسوله ﷺ، ولما عجزت دون ذلك قواه ذهب إلى رسول الله ﷺ يبث شكواه: إِنِّي أَشْتَهِي الْجِهَادَ وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ. ورسول الله ﷺ يعلمه بما أوحى الله ﷻ إليه من فضله، فقال: «هَلْ بَقِيَ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ؟»، فلما أخبره

بإكرام اله ﷻ له بوالدة على قيد الحياة، قَالَ: «قابْلِ اللهَّ فِي بِرِّهَا».

ليكن مجهودك وسعيك وجهادك واجتهادك في بر والدتك حتى تلقى الله ﷻ بذلك، حتى يكون ذلك أفضل ما تلقى به الله، ما تقابل به ربك ﷻ، فإنك إذا فعلت ذلك اجتمعت لك الفضائل جميعا، فإن رمت الحج فقد نلته، وإن قصدت العمرة فما هي ببعيدة منك، وفوق ذلك فإن الحج والعمرة لما كانا نوعين من الجهاد، فإن في بر الوالدين وإكرام الوالدة قياما دائما بوظيفة الجهاد. «فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌّ وَمُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ» نلت الفضائل جميعا.

وبر الوالدين هو أعظم القربات بعد توحيد الله تعالى. قال الله ﷻ : ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا

تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾

فتأمل احتفاء الله ﷻ بالوالدين في هذا السياق الكريم، فأول ذلك بعد الإخبار بحكم الله ﷻ وقضائه، فحكمه وقضاؤه توحيده. ﴿**۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ**﴾ وحكمه وقضاؤه بر الوالدين والإحسان إليهما. ﴿**وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ**﴾ فأجاب المصدر عن الفعل والتقدير وأحسنوا إلى الوالدين إحسانا.

ثم فسر السياق حالا يحتاج المكلفون إلى معرفة أحكامه. وبر الوالدين هو أعظم القربات بعد توحيد الله تعالى. قال الله ﷻ : ﴿**إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤**﴾

فأمر بإحسان هو سداد دين ووفاء عهد من الآباء إلى الأبناء، حتى إذا بلغ من الضعف منزلة كنت أنت السابق إليها، وبلغ من الحاجة من المساعدة حالا لم تجد في مثله عونا إلا برها.

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ فقد صارا إلى حال من الضعف كنت أنت السابق إليه فتذكر مهدك وصباك وطفولتك وحالتك الأولى، من قام عليك غيرهما؟ من سخرهما الله تعالى لمصالحك إلا هما؟

﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾

وتذكر حالك لما كنت في ضعفك وشدة حاجتك، كم كان لك من حنان والديك وبرهما وعطفهما وشفقتهما، وإحسانهما وبرهما الزائد حتى إنهما ليؤثران راحتك على راحتهما، وطعامك على طعامهما، فقد صارا إلى مثل ذلك وذا أوان

الوفاء وموعد السداد، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وتأمل رقة التركيب القرآني وعظمته حتى منع أدنى إيذاء للوالدين بأقل نطق وهو هذه الأحرف الثلاثة.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

تنبيه على تكلف الجميل من الكلام واللطيف من النطق، حتى إذا كان المكلفين مأمورين بإصلاح نطقهم وألا يتكلموا إلا بخير. ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

فإذا كانت هذه هي الوصية العامة، فإن الوالدين أحق بإحسان الكلام من غيرهما، فلذلك وجدت وصية القرآن منادية بذلك: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وفوق ذلك فإن لهما من الحق ما لا يبلغه أحد من الخلق، فإن لهما من الحق العظيم على الأبناء مقدارا لا يبلغه أحد غيرهم، فلذلك قال الله ﷻ

عقيب ذلك. ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ تواضع لهما، والذل لمقامهما رحمة بهما وشفقة عليهما بمثل الذي كنت لقيت في صغرك، وهيهات لا تبلغ الوفاء مهما صنعت.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾

فلا يزال الدعاء للوالدين قبل الدعاء لنفسك، فلا يزال دعاؤك لوالديك مقدما على الدعاء لنفسك، فكلما رمت دعاء فاذكر والديك، فإنهما سبب وجودك، وإن حقهما عليك أعظم الحقوق، فكلما دعوت فلا تنسى أن تقول :

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾

وبر الوالدين وظيفة الجهاد المستمرة وعمل الجهاد الذي لا ينقطع، وهو مقدم على الجهاد الذي هو مقاتلة الكفار بالسيف ومدافعتهم.

ففي صحيح مسلم أن رجلا جاء يستأذن رسول الله ﷺ في الجهاد، فقال له ﷺ: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟» قَالَ : نَعَمْ، قَالَ : «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ» جاهد نفسك ببرهما والإحسان إليهما.. جاهد نفسك بالقيام على حقهما بتعظيمهما بالوفاء بحقهما. قَالَ : «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ».

ومن عجز عن الحج ورغب في أن يمتد أجله، وأن يزاد في رزقه حتى يبلغ موسما آخر يزاد فيه أجله، فإن وسيلته إلى ذلك بر والديه وصلة رحمه. ففي الحديث : «مَنْ سَرَّهُ يُمَدَّ لَهُ فِي أَجَلِه وَيُزَادَ له فِي رِزْقِهِ يُعَظِّمَ اللهُ رِزْقَهُ فَلِيُبِرَّ وَالِدَيْه وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

فإذا تشوفت إلى الحج ورمته ورغبت مدة أجل تبلغ بها أمل وزيادة رزق تنال بها غرضك، فإن عليك أمرين فالزمهما، «فَلِيُبِرَّ وَالِدَيْه وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

وبر الآباء سبب لهداية الأبناء حتى يكونوا لآبائهم الآخرين بارين. ففي الحديث كذلك «بَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ وَعِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُم»، وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾

فإذا كان منك بر لوالديك، فمن لطف الله ﷻ وكرمه أن يبقي لك فعلك في ولدك حتى يلهم ولدك برك والقيام بحقك، وكذلك إذا عففت عن المحرمات وتطولت عن الممنوعات وجدت ذلك في حريمك ونسائك. «وَعِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكُم».

** ** **

• مواسم خير لا تنقضى

لاتزال نعم الله ﷻ عليك مترادفة، ولاتزال منن الله ﷻ الواصلة إليك متوالية، فلا ينقضي موسم من مواسم العبادة حتى يأذن الله بموسم آخر تبلغ فيه الفضل والزيادة، وما ينغلق باب من أبواب العمل حتى يفتح الله ﷻ بابا آخر تبلغ به الأمل. فإذا انقضت أيام ذي الحجة بما فيها من العبادات والخيرات، فما انقضى فضل الله تعالى بإنقضائها، وإذا ولت تلك الأيام الميمونات المباركات، فما ذهب عطاء الله ﷻ بذهابها، فلا تزال خزائن الله ﷻ ملأى لا تغيضها النفقة، ولايزال فضل الله ﷻ واسعا.

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

وتلك أيام مباركات آذن الله ﷻ بها، آذننا بفضلها وأذن بمجيئها وهي أيام الصيام في عاشوراء، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه سُئِلَ رسول الله ﷺ عَنْ صيام يَوْمِ عَاشُورَاءَ؟ فَقَالَ: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ».

وقد صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه.

ولما أخبر ﷺ بأن اليهود تصوم يوم عاشوراء، وكان دينه ﷺ مقتضيا مخالفة أصحاب الجحيم، والمباينة لأحوال الكافرين والمشركين، فلذلك قال ﷺ : «لَئِنْ عشتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ».

فثبت من سنته ﷺ بهمه على هذا الفعل استحباب صيام يوم التاسع.

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس ﷺ مرفوعا «وصوموا يَوْمًا قَبْلَهُ أَوْ يَوْمًا بَعْدَه». وفي رواية أو قد تردد الراوي «وصوموا يَوْمًا قَبْلَهُ وْ يَوْمًا بَعْدَه».

فعلمت من ذلك أن صيام يوم عاشوراء على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى وهي أعلاها: صيام التاسع والعاشر والحادي عشر، حتى تسبق الصيام المطلوب بيوم قبله يكون تمهيدا للصيام وتدريبا عليه وإصلاحا له. وتصوم يوما بعده، وحتى تصوم بعد اليوم المطلوب يوما آخر بعده يكون فيه شكر لله ﷻ على صيام يوم العاشر واستدراك لما فات العبد من أحوال الصيام في ذلك اليوم.

وإذا صام أحدنا فليصم سمعه وبصره عن الكذب والزور، وليدع المحارم، وليدع أذى الجار، ولا ينبغي أن يكون يوم صومه ويوم فطره سواء. فقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال :

«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ».

وإذا كان رتب على صيام هذا اليوم الواحد تكفير ذنوب سنة ماضية، فما أجدرك بإصلاح صيام ذلك اليوم بكل ما تقدر عليه من الأسباب باجتناب المحرمات والمكروهات، وبالوفاء بالواجبات والاستكثار من المندوبات والمستحبات.

ويبقى عليك من وظائف يوم المحرم وظيفتان، الوظيفة الأولى وهي مناسبة لكون ذلك اليوم يوم مغفرة للذنوب، الوظيفة الأولى وظيفة التوبة، وذلك أن رسول الله ﷺ أخبر أن الله تاب في هذا اليوم على قوم ويتوب فيه على آخرين، فعساك إن وافقت في هذا اليوم توبة من الله تعالى، عساك إن أحدثت بنفسك توبة إلى الله في يوم عاشوراء أن يوافق توبة الله ﷻ على قوم تكون أنت منهم.

فجددوا في يوم عاشوراء عهود التوبة، واستكثروا من الاستغفار في هذا اليوم إلى الله ﷻ، ودعوا ما أعدتم من المظالم والمنكرات، عسى أن تنالوا في هذا اليوم مع مغفرة الله توبة إلى الله ﷻ فلا ترجعوا إلى الذنوب أبدا.

وأما الوظيفة الثانية فهي وظيفة التوسعة على العيال في يوم عاشوراء، ففي الحديث أن من أوسع على أهله وعياله في يوم عاشوراء أوسع الله عليه سائر سنته، قال المنذري رواه البيهقي من طرق وعن جماعة وبأسانيد وإن كان فيها ضعف فإنها إذا انضم بعضها إلى بعض أخذت قوة.

وهذا نصير إلى اعتبار هذه الرواية بتعدد طرقها لأنها إذا أخذت قوة أصبحت محل قبول وعمل بها، فمن أوسع على عياله في يوم عاشوراء، أوسع الله ﷻ عليه سائر سنته.

قال سفيان بن عيينة : جربناه من خمسين أو ستين عاما فما وجدنا إلا خيرا.

فاللهم يسرنا للتوبة إليك من جميع الذنوب والآثام..

اللهم وفقنا للتوبة إليك من جميع الذنوب والآثام..

اللهم يسرنا للصيام في عاشوراء على الكمال والتمام.. اللهم يسرنا للصيام في عاشوراء على الكمال والتمام..

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك..

اللهم يسرنا لبر الوالدين والإحسان إليهما.. اللهم يسرنا لبر الوالدين والإحسان إليهما..

اللهم أعنا على القيام بحقوقهما.. اللهم أعنا على القيام بحقوقهما..

اللهم لا تقبضهم إلا وهم عنا راضون.. اللهم لا تقبضهم إلا وهم عنا راضون..

اللهم ثبت أقدام المجاهدين.. اللهم ثبت أقدام المجاهدين..

اللهم اربط على قلوب المؤمنين.. اللهم اربط على قلوب المؤمنين..

- **الجمعة ١٣ فبراير ٢٠٠٤**

التسبيح دبر الصلوات

كم فاتك يا محروم لما فاتك الخير في تلك الأيام الخاليات ؟ كم تراكم عليك من الذنوب والخطايا..

كم تراكمت وراءك الدرجات العليا.. مشغوفا بالشهوات مشغولا بالحظوظ الفانيات. ترى ما عسى أن يكتب لك في تلك الصحيفات. فاتت الدرجات وذهبت تلك الحسنات وبقيت يا نفس، بقيت فيما أنت فيه من العوائد السيئات والمألوفات المرذولات.

أليس يا نفس قد فاتك الوقوف بعرفات؟ هنالك ترفع السيئات، هنالك تضاعف الحسنات، هنالك ترفع البليات.

فاتك يا نفس كل ذلك.

أليس يا نفس قد فاتك قبل الوقوف بعرفات، فاتك السعي بين الصفا والمروة ففات في ذلك السعي أغراض نبيلات حيث يكون المقام مقام التفكر في الخطيئات والعيوب المتوطنات. ففات التفكر في الخطيئات وبقيت تلك العيوب كما هي ثابتات متوطنات.

أليس يا نفس قد فاتك قبل ذلك الطواف بالبيت العتيق؟ هنالك يكون التمييز للذي أنت فيه من الطريق، فإلى الله تعالى وطاعته تسيرين، أو تلك الأغراض الفانية تنشدين؟ أليس ذلك الطواف يعني طوافك في أرجاء تلك النفس تفتيشا فيها عما يكون سبب صلاح سيرها؟ ففات طواف البدن، وفات الطواف للتفتيش عن تلك المعالم. أليس حق ذلك الطواف أن يكون طوافا وراء تلك العيوب التي استخفت وما ظهرت، أو دقت فما فطنت النفس إليها، أو توارت وراء غيرها من

العيوب الشديدات، فبقيت غير محسوبة من العيوب المطلوبات في التخلص منها ودفعها.

فاتك يا نفس الطواف بالبيت العتيق، وفاتك يا نفس قبل ذلك قطع مسافة الطريق التي هي مجاوزة المسافات والوصول بالقلب إلى رب الأرض والسموا. فأرسل الله إلى بيته من شاء وبقيت مع تلك الذنوب مقطوعة عن مشاهدة الآلاء والتفكر في النعماء. بقيت محبوسة عن سلوك سبيل استدفاع البلاء. فلم يزل ذلك البلاء الذي كان.

وفاتك يا نفس مع ذلك الدرجات وتراكمت عليك الخطيئات. فاتك يا نفس تلك الحسنات من عتق الرقاب ومن محو الآثام، ومن زيادة الحسنات العظام. فيا حسرة النفس على ما فات.. يا حزن النفس على الذي كان. كان الذي كان بموانع الذنوب والآثام. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾

ثم بقيت يا نفس وجاءك الزمان الميمون، ووجدك يا نفس عن تحصيل شرف ذلك الزمان مشغولة بتلك العادات المرذولات وبتلك الخطايا المشئومات، فرحل ذلك الزمان يا نفس وتركك، تركك يا نفس في لحال الذي كنت فيه.

ما الذي تغير منك يا نفس بعد تلك الأزمان المباركات ؟ هل زاد الشوق إلى ما لدى الله تعالى في الجنات ؟

ويحك يا نفس هل زاد الخوف مما حذر الله تعالى من عقوبة أهل السيئات ؟

ويحك يا نفس هل زاد الحذر من تلك الآفات الكامنات والعيوب المفسدات ؟ ويحك يا نفس فكأنما انقضى ذلك الزمان وفات وتركك في الحال الذي كنت فيه أما تخشين أن يبغتك الموت على هذا الحال ؟

فما الذي تقولين لله إن مت الآن ؟ بأي حال تقابلين الله ؟ بأي مقال تجيبين الله تعالى لو سألك عن تلك الأزمان وعن تلك الأعمال الصالحات.

ويحك أفلا تعتبرين. ويحك بأي شيء توعظين ؟

في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قال : جَاءَ الفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلاَ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ.

شكوى الفقراء إلى رسول رب السماء ﷺ لا يشتكون مما سبب لهم الفقر من فقد اللذات أو من ذهاب تلك الشهوات التي ينالها الأغنياء أو من ضياع التمتع بهذه الدنيا الفانية، لكن شكواهم ما قصر بهم عن الطاعات.

شكواهم قصورهم دون بلوغ تلك الدرجات يرون غيرهم إلى الله تعالى يسعون وهم قاعدون، ويرونهم من الحسنات يغترفون وهم عاجزون، فما الذي عسى أن يعوض ذلك الفقد بماذا يمكنهم أن يدركوا ما فاتهم من الفضل. تلك كانت مهمة وفدهم إلى رسول الله ﷺ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلاَ، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ. هذا الذ يستحق التحسر على فقده، والحزن على فوته، ذهاب الدرجات العلى درجات المجاهدين ومنا زل السائرين إلى رب العالمين.

هذا الذي ينبغي أن يحزن فقده، وأن يؤلم فوته، وهذا الذي كان شعور أصحاب رسول الله ﷺ؛ فقدهم للدرجات العلى وذهاب رجاؤهم من نيل ذلك النعيم المقيم.

وتفصيل تلك الشكاية: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ.

فهم لمسالك الصلاة والصيام سالكون، وعلى مدارجها يتنعمون: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَلَهُمْ فَضْلُ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ.

ففات الفقراء ما به ما به يحجون ويعتمرون، وما به يتصدقون ويجاهدون، فيا حزن أولئك على الذي فاتهم. ظلوا بذلك يتألمون، فما ملوا حتى أوصلوا تلك الشكاية إلى رسول الله ﷺ.

لم يكن شكوى أحدهم لقلة الطعام أو قلة الثياب واللباس أو قلة الفرش أو الغطاء أو نحو ذلك، لكن أسى جمعهم على ما فاتهم من حظوظهم إلى الله تعالى. ولقد كان ذلك موروث من بعدهم.

قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة. فما أحقر تلك الدنيا وما أبخسها وما أقلها. فإذا رأيت أحدا ينافسك في الدنيا فانظر إلى أعمال الآخرة فنافسه

فيها. وقال غيره: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله تعالى أحد فافعل.

كلما رأيت مجتهدا في الطاعات فلا ينبغي أن تسمح لنفسك أن تكون دونه، أو أن ترضى أن يكون سعيك أقل من سعيه. فلو سبقك أحد إلى الصلاة فغالبه، أو في الصيام فأكثر حتى تدركه وتسبقه، أو في الذكر فحرك اللسان حتى لا يكون أكثر منك ذكرا. إن استطعت ألا يسبقك إلى الله تعالى أحد فافعل.

وقال بعضهم : ينبغي لمن سمع أن أحدا أطوع لله تعالى منه، كان حقه أن يحزنه ذلك. من سمع أن رجلا أطوع منه لله تعالى فحقه ألا يغادر ذلك نفسه كما هي، بل حق ذلك أن يبقى في النفس حسرة وحزنا على تقصيره حتى يكون غيره أطوع لله عز وجل.

وأما جواب رسول الله ﷺ لأولئك المحزونين على ما فاتهم من

نصيبهم من ربهم : قَالَ: «أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ بما لو أَخَذْتُمْ لحقتم مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ». فشوقهم رسول الله ﷺ إلى الجواب بتلك العبارات.. إن فيها قضاء تلك الحاجات. إن فيها تحصيل تلك المآرب الطيبات.

«أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ بما لو أَخَذْتُمْ لحقتم مَنْ سَبَقَكُمْ» فيقطع ذلك بكم تلك المسافات التي قد سبقكم بها غيركم.

«وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ» وكنتم في السائرين إلى الله تعالى سباقين فلا يستطيع أحد اللحاق بكم. وكان ذلك كذلك فوق إدراك من سبقكم، وفوق أن يدرككم أحد بعدكم، كان ذلك سببا لاستقامة سيركم، وتنعمكم بعبادتكم.

«وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ» يميزكم ذلك الفعل حتى تكونوا مزدانين بالطاعة الظاهرة، متنعمين بتلك القلوب

المشغولة بالآخرة، والموصولة بالله ﷻ في كل لحظة وحال.

«وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ» منقادين للأوامر مجتنبين لمواقع النهي، متأسين برسول الله ﷺ آخذين بسنته.

وأما تلك الخصال التي دلهم عليها:

قال ﷺ: «تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ» كم يسبح الناس بعد الصلوات، فأين تسبيحهم من ذلك التسبيح الذي به يُدركون ولا يُلحقون؟ به ينتفعون وببركته ينصلحون ؟ إن هناك فرقا بين ذلك التسبيح المطلوب وبين ذلك التسبيح الموجود.

«تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ» به لحقتم من سبقككم وبه تسبقون لا يدرككم أحد بعدكم وبه تنصلحون وتسعدون.

«وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ»

والتسبيح دبر الصلوات فعل ينبني على غيره من الأفعال المباركات فلهو فرع ذلك التسبيح الذي حقه أن يكون شغل اللسان في كل حال، ولهو المكمل لذلك التسبيح والتحميد والتكبير الذي ضمنته أفعال تلك الصلوات.

فلهو تسبيح مرتبط بغيره، مكمل لمثيله ونظيره. ولهو التسبيح الذي هو عنوان ذلك القلب، ومحل تفكره وشغله.

«تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ» بقلب حاضر ولسان يطابق نطقه حال جنانه. فيسبح اللسان ويتجاذب الجنان، ويحمد اللسان ويتعاطف الجنان، ويكبر اللسان فيخضع ويذل ويخشع ذلك الجنان. تسبحون بذلك القلب الحاضر واللسان الخاشع الذي سبق استجلابه مع أول تكبيرة في الصلاة يدخلون بها، فتحرمون على القلب شغله بغير حقها وتعلقه بغير أداء ووفاء المتعلق بها.

«تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ» بعدما حضرت قلوبكم في الصلاة وخشعت لجلال الله وذلت لعظمة الإله ﷻ. فيكون تسبيحكم وتحميدكم وتكبيركم إصلاح تلك الصلاة واستدراك ما فات فيها من المقاصد والمعاني.

ويكون ذلك التسبيح والتحميد والتكبير مع نظائره في طي الصلاة وثناياها، يكون ذلك الزاد الذي يصلح به ما بين الصلاتين من الأوقات. فبذلك تدركون في السعي الذي فات، وبذلك، بإصلاحكم الصلوات وما بينها من الأوقات، بذلك تسبقون فلا يدرككم أحد بعدكم. بإصلاح الصلوات وما بينها من الأوقات بذلك تسعدون، أليس قد جعلت قرة عين النبي ﷺ في الصلاة؟

أليس قد كانت راحته ﷺ فيما يكون في الصلاة من مناجاة الله؟ أليس كانت تلك الصلاة عوض رسول الله ﷺ على ما يعظم

عليه من الأمور وما يكون من الهموم، فقد كان إذا أحزنه أمر ﷺ رجع إلى الصلاة. ففي الصلاة مدافعة ذلك الأمر الشديد. قد كان في الصلاة راحة رسول الله ﷺ يستريح بها، والآخرون يستريحون منها، من هم فعلها. وحال قلب رسول الله ﷺ التنعم التام بأفعالها وأحوالها وأقوالها الذي يفسر قوله ﷺ : «وَجُعِلَت قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

فكان في دلالة رسول الله ﷺ أولئك الفقراء على تلك الخصال، كان في ذلك دلالتهم على حراسة تلك الصلوات بما بعدها من الوظائف المباركات. وكان في ذلك دلالتهم على حراسة تلك الصلوات بما بعدها من الوظائف المباركات.

كان في ذلك التنبيه على لزوم استكمال ما في طي الصلاة من الوظائف حتى إذا غولب المرء ببشريته، وقُدِر من جهة ذنبه وخطيئته، جُعل له بعد انقضاء صلاته سبيل لاستدراك ذلك

الذي فات حتى يكون أول ذلك استغفاره، فينفتل من صلاته فيستغفر الله ثلاثا. يستغفر الله تعالى لتقصيره في حسن استقباله لتلك الصلاة. ويستغفر الله تعالى لما أصاب قلبه من غفلة أو جمود أو قسوة في أثناء تلك الصلاة. ويستغفر الله تعالى لما يحذر من ذنب يكون مانعه من إصلاح إتباع تلك الصلاة. ويستغفر الله تعالى لتقصيره في أفعالها. يستغفر الله تعالى لتقصيره في حق أقوالها. يستغفر الله تعالى لتقصيره فيما يلزم من أحوالها من خشوع القلب وذله، ومن سكون النفس وخضوعها. ويستغفر الله تعالى لما فسد منه من تلك الصلوات. ويستغفر الله تعالى من عجزه عن استدراك ما فات. ويستغفر الله تعالى من وجله لعدم وثوقه بإصلاح ما يستقبل من الصلوات.

ثم يكون تسبيحه وتحميده وتكبيره تكميلا لما كان من تسبيحه

وتحميده وتكبيره.

«تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ» وقد كنتم في الصلاة تسبحون وتحمدون وتكبرون. تسبيحا باللسان حقه أن يصاحبه تسبيح الجنان.

فإن المصلي متعبدٌ بأن يقول في ركوعه وسجوده «سُبْحَانَ رَبِّيَ»، ويزيد في ركوعه شهوده عظمة ربه وحقارة شأنه. يزيد شهوده لجلال الله ﷻ، وفناء تلك النفس وضاءلتها. يزيد شهوده علو الله تعالى وكمال قدرته ليشهد من نفسه خستها وقلتها، وذهاب حيلتها، وقلة شأنها، فيقول سبحان ربي العظيم. فيشهد مع تسبيحه عظمة ربه ليبرئ الأقدار من تهم نفسه ليشهد تلك التهم تهمة تهمة ليبرئ الأقدار منها، فذلك كسب العبد ورديء سعيه.

فسُبْحَانَ رَبِّيَ.. ما كان ذلك إلا من كسب العبد وجريمته

وخطيئته وجريرته.

سُبْحَانَ رَبِّيَ، تقدس الله تعالى، فليس تقديره إلا ذلك الحكم التام والحكمة البالغة. فإذا أضاف ذلك التسبيح إلى قوله ربي، شهد الله تعالى في مقام الربوبية له، وسوق النعم إليه وإحاطته بفضله، وملاحقته ببره. فلا يزال العبد يربيه الله تعالى بنعمه، ويرقيه بأفضاله وكرمه. فيشهد مع نسبته التسبيح لربه، يشهد الآلاء ويبصر النعماء، ويحس بذلك الفضل يلاحقه، وذلك البر لا ينفك عنه ولا يغادره.

ويبصر مواقع التهم في داخل نفسه، مواقع بر الله ﷻ له، ومواضع معالجة أسقامها، ومداواة عللها وأمراضها، فذلك الذي يا نفس كرهت إنما هو دلالة الله تعالى إياك على عبادة تركتيها، أو على جريرة ركبتيها، أو على خطيئة نسيتها. فسُبْحَانَ رَبِّيَ ما كان ذلك المكروه إلا تربيتك.. ما كان ذلك

إلا ترقيتك.

«فسُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» ما أعظم قدره.. ما أجل حكمه.. ما أحكم فعله. فتمتلئ قوى القلب وأرجاؤه بتعظيم قضاء الله تعالى في عبده وتوقيره حكمه وإجلال فعله.

ويتكرر ذلك التسبيح انتقالا من شكاية النفس إلى شكاية الذنب، ومن شكاية الذنب إلى غيرها من الشكايات، حتى يتعاهد بذلك التسبيح أسقامه الظاهرة ومعاطب سيره ومواقع توقفه، وانقطاع ذلك السير إلى ربه.

ثم يرفع رأسه بعدما أشهده الله تعالى آلاءه، وبصره بمواقع الحكم من تلك الأقدار التي كرهتها النفس وألمتها، فيكون الموقع موقع الثناء على الله بما أعطي في ذلك المقام السابق، فينادي على نفسه وغيره : «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» سمع سماع المجازي عن ذلك الحمد أحسن الجزاء. فيجيب ذلك السماع

بأحسن الثناء، فيكون ذلك مقام حمد متكرر بعدما كان حمد الله في ابتداء صلاته، حمدا بجميع المحامد لما قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فضمن ذلك جميع المحامد وشهد من أسباب ذلك الحمد تربية لله للأولين والآخرين، وأنعم الله ﷻ على السابقين واللاحقين، وفضل الله على الإنس والجن أجمعين. ورأى نفسه حقيرا بين أولئك المذكورين، فلهو أقل من ذرة في العالمين. فأبصر نفسه على حقيقتها، ورأى حق حقارتها وضاءلتها. فحقق ذلك الحمد في ابتداء صلاته، فصار شهوده ذلك الحمد ذله في قيامه، وانكساره في ركوعه وخشوعه، وانتظاره في سجوده.

ثم جاء ذلك الحمد الآخر على تلك النعمة الظاهرة، نعمة تسبيحه الله تعالى، الذي يعني تبرئته أقدار الله تعالى وإبصاره حكم الله تعالى في أفعاله، وشهوده مواقع الخلل من سعيه،

ومواقع الترقية التي تلزم لعبادته.

ثم يسجد لينطق اللسان ويشهد الجنان. يسجد يفترش وجهه، لا يرى إيفاء نعم الله عليه إلا أن يجعل ذلك الوجه حيث يطأ ذلا لله تعالى وخضوعا، واستكانة وخشوعا. فيفترش وجهه خضوعا لربه، فلا يملك اللسان إلا أن يعود إلى ذلك التسبيح الذي عهده، فيصرخ اللسان «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى».

فيشهد علو الله تعالى وقهره، ويرى الله تعالى قاهرا فوق خلقه، فلا يرى لأولئك الخلق نسبة إلى فعل ولا تحصيل لإرادة ولا قدرة على تصرف، فيرى الله تعالى فوقهم عاليا عليهم بإرادته. فإرادة الله تعالى فوق إرادتهم، ويرى الله تعالى فوقهم، يرى الله تعالى الأعلى ويرى الخلق كلهم أسافله منخفضين ذاهبين في الانخفاض. فلا يرى لهم قدرة على فعل، بل يرى الله تعالى

هو أقدرهم. يرى قدرة الله تعالى هي الفعالة لتلك المخلوقات، وتلك الموجودات التي هي في محل التهم في تلك النفس الأمارة بالسوء الميالة للشهوات. فيحصل من ذلك... من التسليم بالمقدورات والمحبة لأفعال الله تعالى الحكيمات.

فينطق بذلك لسانه ويصدق جنانه وينتقل في حال تسبيحه من موضع مقدور لم تره النفس موافقا لها إلى موضع مقدور ما وافق أهواءها، وما صاف محبوبها، حتى يداوي ذلك التسبيح ما في النفس من التهم البينات، وحتى يدلها ذلك التسبيح على مواقع الخلل في الوظائف المتكررات، وفي الأعمال التي حقها أن تكون أعمالا صالحات.

فتهدأ النفس لذلك وتسعد، وتترسم تلك الخطا المباركات، حتى يكون في النفس قرة العين التي كانت في الصلاة لسيد السادات ﷺ. حيث قال: «وَجُعِلَت قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

فيا حسرة النفس على ما ضيعته، ويا أسف النفس على ما فقدته. أليس قد فقدت من قبل الخيرات في رمضان ؟

أليس قد فقدت الخيرات في أيام ذي الحجة المباركات ؟

أليس قد فقدت حجا وعمرة مقبوات ؟

فحق ذلك التحير ألا يبرحها..

حقها أن تشهد ما فقدت في رمي الجمرات..

أليس شأن ذلك أن يكون تكفيرا للكبيرات الموبقات ؟

فات ذلك وبقيت تلك الكبيرات غير مكفرات.

أليس قد فقدت من قبل المبيت بمزدلفة؟ حتى تكون في مقام تتخلص فيه مما في النفس من عناء الحفاظ على جاهها والتحصيل لوجاهاتها والتألم لمساس تلك الوجاهات والجاهات..

ففات ذلك، وبقي في النفس حب الوجاهات بقي في النفس

غضبها لمساس ينال ذلك البدن الفاني حتى قصر ذلك بانفس عن الغضب لله وعن الغيرة على حدوده وحرماته.

أما انتقاص ذلك البدن الفاني والتهمة لتلك النفس الآثمة فجريمة لا تغتفر. ليتوفر لها الغضب، وليتغير لها القلب.

لما فات المبيت بمزدلفة فات ذلك الفضل، وبقيت النفس فيما هي فيه. فيا حسرة النفس على فوات المبيت بمزدلفة.

يا حسرة النفس على فوات المبيت بمنى، أليس في ذلك ترك العوائد حتى تنفك النفس من تلك الأغلال والقيود؟

أليس في ذلك التجرد بالتأسي برسول الله ﷺ حتى يكون في لك عون النفس على ذلك التأسي المنشود برسول الله ﷺ في كل حال.

فات المبيت بمنى وبقيت يا نفس محبوسة مع تلك العوائد، ملطخة بالآثام، ممنوعة بالغفلات والذنوب العظام.

فيا فقد النفس للحج والعمرة، ويا ألم النفس على ذلك الفقد.

ويا حسرة النفس على فقد فضل ذلك وثوابه وجزائه.

كم قصرت يا نفس في دفع ذلك الثمن الذي يبلغ إلى تلك المواقع أليس ثمن ذلك صلوات كثيرات ؟ فما كانت تلك الصلوات الكثيرات.

أليس ثمن ذلك تسبيحات غير محصورات ؟ فاتت تلك التسبيحات.

أليس جهاز ذلك علما وعملا ودعوة إلى الله تعالى تكون إعانة لتحصيل تلك الوظائف في تلك المنازل الميمونات ؟

فات ذلك.. وأصبح حال القلب الذي يلزم أن يصير إليه، أصبح توطن تلك الحسرات، وتذكر ذلك الفقد على تلك الأعمال المباركات أصبح ذلك المطلوب من حال القلب في كل حال.

وتعين السير من الآن للوصول إلى ذلك المنشود الذي يؤجله الله تعالى ويبقيه، أصبح السير لازما أن يكون من الآن.

أولا : بتحصيل تلك الأعواض التي أولها إصلاح الصلوات المكتوبات والجمعات.

وإصلاح ما بعدها من الأذكار، التسبيحات والتحميدات والتكبيرات، إلى غير ذلك من الأعواض المعلومات. فهذا هو سبيل السير الأول

وأما سبيل السير الثاني : فإعداد الزاد، فإذا كانوا يتزودون بالأموال، فإن المقام مقام التزود بالأعمال، فليكن من تلك الساعة إعداد تلك الأعمال التي من شأنها أن يفتح الله تعالى بها تلك الأبواب المغلقة، وييسر من تلك الطرق الموصدة. وهو يعني زيادة حزب الصلوات فيزيد في مقدار ما يصلي، جهازه لحجه وإعداده لنسكه وتوسله إلى ربه حتى يفتح تلك

الأبواب.

ويزيد في تسبيحه وتحميده وتكبيره ما يكون إصلاح سيره ويكون جهاز رحلته ويكون زاده في حجه وعمرته.

ويزيد من الصيام فوق ما كان ما يرجو به إصلاح الصيام.

فلو انصلحت الصلاة وانصلح الصيام وتأدت الزكاة، فما الذي يمنع الحج الذي يتم به الدين ؟

فلولا نقص ما قبل الحج من أعمال الإيمان، لما تعسرت تلك الوظيفة على أهل الدين إلى الآن.

فلولا نقص صلاتهم، ولولا نقص صيامهم، ولولا نقص زكاة أموالهم لما حصل القصور والموانع التي حالت بينهم وبين حجهم وعمرتهم.

ويسلك مسلكا ثالثا هو مسلك حق ذلك النسك من العلم الظاهر والشهود الباطن حتى يكون في موقع أن يصح نسكه،

وأن يصحح مناسك غيره، وأن يبر حجه، وأن يكون عونا لغيره على بر حجه. وهو يعني سلوك مسالك العلم والتعليم لذلك النسك المفقود والشهود والإشهاد، أن يشهد معانيه الباطنة حتى تشتاق لذلك النسك نفسه، وأن يُشهدها غيره بأن يدلهم عليها حتى تعود تلك الأشواق فتجتمع مع ما سبق من الأسباب فحينذاك تفتح الأبواب، حينئذ تذوب تلك الموانع وتنمحي تلك القواطع.

فاللهم اشهدنا بلطفك الفقد لما فاتنا من الأعمال الصالحات.. اللهم اشهد قلوبنا ما خسرت وما ضيعت من الأعمال الصالحات.. اللهم اشغل أشواقنا لتحصي ذلك المفقود الذي فات.. اللهم انزع عنا حجاب الغفلات.. اللهم أزل عنا أسر الخطيئات وثقل السيئات.. اللهم أطلق أرواحنا لتحصيل ثواب الجنات.. اللهم زين جوارحنا بالأعمال الصالحات..

اللهم حرك ألسنتنا بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في كل الأوقات.. اللهم يسر الحج والعمرة وفتح الأبواب يا واسع الرحمات.. اللهم يسر الحج والعمرة لأهل الدين يا أرحم الراحمين.. اللهم فتح أبواب الحج والعمرة لأهل الدين يا أرحم الراحمين.. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.. اللهم ارزقنا إصلاح الصلوات المكتوبات.. اللهم يسرنا لإصلاح ما بعدها من التسبيحات.. اللهم ارزقنا إصلاح الجمعات.. اللهم آتنا إصلاح ما بعدها من التسبيحات والتحميدات والتكبيرات.. اللهم أعنا على إصلاح الصلوات المكتوبات وإصلاح ما قبلها وما بعدها من السنن والرواتب الميمونات.

اللهم وفرج كرب المكروبين.. اللهم وفك أسر المظلومين.. رب انصرنا على القوم المفسدين.. اللهم طهر الأزهر من

المفسدين.. اللهم مكن في الأزهر لأهل الدين.. اللهم عليك بأعداء الدين.. اللهم أحصهم عددا وأهلكهم بددا، ولا تبق منهم أحدا.. اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم.. اللهم احفظنا بحفظك الذي لا يرام واكلأنا بعينك التي لا تنام ورد عينا كيد الكائدين.. اللهم رد عنا بأس الكافرين.. اللهم رد عنا شر المشركين.. اللهم احفظنا بالإسلام قائمين وراقدين.. اللهم لا تشمت فينا عدوا ولا حاسدين.. اللهم كما هديتنا للإسلام فتوفنا عليه يا رب العالمين.. توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.. اللهم احفظنا بما تحفظ به عبادك الصالحين.. اللهم احفظنا بما تحفظ به عبادك الصالحين..

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا

مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا.

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ..

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

• خطبة الجمعة ٢٥ يوليو ٢٠٠٣

السعي في حاجة الإخوان

ما أكثر ما أعطاك الله يا نفس من النعماء. فما الذي صنعت فيما أوتيت من نعم الله ؟

شهدت تلك النعم ؟ أقررت بكونها من الله تعالى، فأثنيت على الله تعالى بها، وعذت بالله أن تنسب تلك النعم إلى غيره. فتصرفت في تلك النعم فيما يقرب إلى الله تعالى ؟ ليتك فعلت. فكم من نعمة تعرفينها ويبقى إقرارك، إقرار اللسان بها. ويُطلب الثناء على الله تعالى بإعطائها.

ويبقى شكر تلك النعمة موقوفا على حسن تصرفها.

وكم من نعمة أوتيتيها يا نفس فما تفطنت إليها. فأنت بذلك لا تعرفينها، فلا إقرار لك بها، ولا ثناء على الله تعالى

بإعطائها. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النَّحل : ١٨]

وديوان النعماء ديوان بذر بذور المحبة في القلوب. وديوان النعماء ديوان شهود عظيم العطاء، وديوان التوطن في مقام المحبة لله عَزَّ وَجَلَّ والشكران لفضله.

فليتك يا نفس بهذا الديوان تعتنين.

إن لتحول ذلك القلب من ذلك السخط الذي يعاوده، فإذا هو من رضا إلى رضا. من رضا بهذه النعمة التي لا يستحقها إلى رضا وعرفان بذلك العرفان الذي لا سعي منه لتحصيله إلى انكسار قلب بعد عرفانه بعطاء آخر يتحبب الله عَزَّ وَجَلَّ إلى العبد به، مع تمقت العبد إلى الله تعالى بالعصيان والغفلات والشهوات.

فليتك بديوان النعماء يا نفس تعتنين.

إذن لعرفت أن فضل الله ﷻ وعطاءه أعظم من فضل كل أحد وعطائه. إذن لرحل عن القلب تعلقه بغير الله تعالى محبة، ولتمحضت تلك المحبة لله ﷻ إذ كان هو المتفضل بالعطاء، المفيض للنعماء، المتكلم بكل سبب من أسباب الحياة والبقاء.

ومن هذه النعماء يا نفس لو تعقلين تلك الزواجر التي لا تحبين. فإنها لكونها فعل الحبيب إنها لمحبوبة. أليس الله تعالى مستحقا لكمال محبة العبد له. فإذا كان كذلك، كان فعله كذلك محبوبا، أحب شيء إلى النفس، وإن كان في ظاهره من جنس ما يوافق الطبع أو يخالف الغرض.

فحق ذلك القلب المحب لله أن يحب كذلك أفعاله، ويجاوز ظواهر تلك الأفعال حتى يبصر ما وراءها من الألطاف الإلهية. فما فعل لله تعالى إلا وقد أحاطت به

ألطافه، واشتمل عليه بره، فبقي مكروها محفوفا بالألطاف، محاطا بصنوف البر الإلهية.

فليتك يا نفس بعدما غرس في القلب بذور المحبة، أن تبلغ تلك المحبة أفعال الله تعالى جميعا، فإذا كل فعل من الله تعالى جميل.

وذلك يقتضي مجاوزة الأسباب التي سيقت بها تلك الأفعال، ويقتضي إلغاء من كانوا من المخلوقين بسبيلها، فلا سبب ولا خلق ولا فعل، إذ كل ذلك مقدور الله تعالى وكان ذلك فعله الجميل ﷻ.

فليتك يا نفس تحبين أفعال الله تعالى، وإن خالفت في بادئ الأمر غرضك، أو ما وافقت يا نفس هواك، فقد علمت ضلال ذلك الهوى وخلله.

أليس من ذلك تلك لمقدورات التي ما حصلت نظائرها من مئات السنين ؟ فات ذكر ذلك من القلب.. غاب أثر ذلك من الحس. طوت دورة الحياة قلوب المكلفين، فأصبحوا فيما كانوا فيه من قبل سائرين دائرين. وهذا الذي كان ولم يتكرر مثله من الأزمان البعيدة، أليس له حق في ذلك الشعور؟ أليس إذا فات أثره من الأحساس كان في ذلك ضرر كبير، فنه يا نفس فعل الله الجميل. فلو أبصرت فيما وراء ذلك من الحكم، وما في طي ذلك من الفوائد العظام، لا يطفأ ما في القلب من الشعور بكراهة ذلك لما في ذلك من غلبة الكفار وتمكينهم. فإذا ذلك كله كراهة للكفر ونقمة على أهله. أما فعل الله المقدور من ذلك فإنه لمنضم إلى ديوان النعماء، مقدور على أهل الإيمان من الفضل والآلاء.

فليتك يا نفس بديوان النعماء تعتنيين، تصبحين وتمسين.

فليتك إذا أصبحت تذكرتي نعمة الله تعالى في الإمهال والإملاء. ثم تمسين، فهل تذكرين أن ما كان من مدة الإمهال والإنظار أن ذلك ربما لا يتكرر، فإذا أنت في ذلك المساء إلى الله تعالى تتوبين. لعلك تفعلين.. لعلك تفعلين.

وديوان النعماء يبتدئ بعد نعمة البقاء بنعمة الإسلام والإيمان، ثم يتبعه نعمة الهداية إلى سنة النبي ﷺ. وهي أنعم لأهلها مناديات، وللدعوة إليها مقتضيات، فهي تنادي على أهل الإيمان أن يشهدوها، وهي تقتضي من أهل الإيمان أن يدعو إليها.

فينطوي القلب بعد ذلك الشهود على كمال الامتنان، إذ يبصر تلك النعمة إذا ما قورنت بغيرها يبصرها أعظم النعم وأكبر مواضع الفضل والكرم. فينطوي القلب على الرضا

بذلك والسرور. ويمتلئ القلب بالوجل والإشفاق من العجز عن القيام بحقها والنهوض بشكرها، وإيفاء حق الله ﷻ فيها.

ثم يتبع ذلك ديوان في النعماء ما تفضل الله ﷻ به من العطايا والهبات، ومن ذلك الدلالة على الأعمال الصالحات. وكل عمل فيها حقه أن يكون على رأس كل عبد إذا ما انطوى ديوان يومه وليلته، ينادي عليه ماذا صنعت فيّ؟ هل انتفعت بي في السير إلى الله تعالى أو فات ذلك؟

فليتك يا نفس بديوان الآلاء تعتنيين.

أليس من ذلك الديوان ما عظم الله ﷻ من أجر القيام بمصالح الإخوان؟

أليس كان حق ذلك أن يستخرج ما كمن في النفس من القوى حتى تحصل المسابقة إلى تلك الخيرات.

«فمَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنَ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلَاثَ خَنَادِقَ، كُلُّ خَنْدَقٍ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ الْخافِقَيْنِ»

فيا نفس ذكرت ذلك ؟ أو ذهب ذلك بإنقضائه، ثم ذهب مرة أخرى بالرحيل عن مكان سماعه، ثم ذهب مرة ثالثة بالشغل بهموم النفس وحاجاتها فانطفأ كل أثر لذلك.

ويحك إذا كنت عن مواطن الخير تذهلين، وعن مواضع مضاعفة الحسنات لا تعتنيين.

«مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ خَيْرًا لَهُ
مِنَ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ»

فهل مشيت يا نفس في يومك الأول من أسبوعك الذي ولى، هل مشيتي في حاجة أخيك ؟

فلو فات اليوم الأول لغلبة ما من شأنه أن يغالبك، فماذا صنعتي في ثاني تلك الأيام؟ هل كان منك تشوف لذلك الفضل ؟ فإذا فات اليوم الثاني أليس يا نفس إذا فاتك هم الإخوان، ألست في هموم لا تقدرين عليها، وفي حاجات لا تبلغين وفاءها ؟

أليس كان حسن التصرف أن توكلي الله ﷻ فيها، إذا كنت عاجزة عنها غير قادرة على تحصيلها.

فاتك يا نفس.. لا يزال اله في حاجة العبد مادام العبد في حاجة أخيه. ففوتي لا ذلك الفضل وحده، بل فوتي مع ذلك الفضل قضاء تلك المآرب التي ما زلتي تحبينها وضيعتي سداد تلك الحاجات التي ما زلت لا تستغنين عنها.

فمن الرابح مع تلك الغفلات ؟ كم هذا الغرم إذا فات هذا الذي فات ؟ غرم مضاعف.

فات التشرف بخدمة الإخوان، والتعرض لعطاء الله الكريم الرحمن.

ثم فات في غرم آخر قضاء تلك المآرب، ونيل ما رمتي من المطالب.

أليس ذلك يرجع إلى فوات الاعتناء بديوان النعماء، والتفكر فيما أوتيتي من الآلاء.

كم رمتي خيرا فضعفت المعونة لديك. وفاتك أن تحول تلك الإرادة إلى مساعدة أهل الإيمان من شأنه أن يستنزل المعونة التي يكون بها ما عليه لا تقدرين.

«وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيه»

والاعتناء بديوان الآلاء يعني عدها وإقرار اللسان بها، ويعني حسن السير إلى الله تعالى بالانتفاع بها.

وفوات ذلك الاعتناء يعني فقدان أولى تلك الآلاء، فإذا فقدت، ذهب الرجاء في الانتفاع فيما يتلوها من الآلاء.

وإذا سبيل الشكران في ألا يفوت شيئا من تلك النعماء حتى يقوم بحقه، ويثني على الله ﷻ بها، ويقر بلسانه بالامتنان بذلك العطاء.

ثم يتصرف في ذلك تصرف العبد المتقرب به إلى الله تعالى.

وإذا ذلك النظام يعني أن فوات الانتفاع بنعمة العطاء والعافية في البدن وإمكان التصرف في الزمان حتى يفوت الشغل بحاجات الإخوان، إن ذلك فوته راجع إلى فوت ما قبله.

فلو عرف العبد ما قبل ذلك من النعماء فقام بحقه، لكان للذي يأتيه بعد أعرف وأقوم بحقه. لكن لما حصل الفوت الأول، تبعه بالضرورة هذا الفوت الثاني وهكذا؟

فليتك يا نفس على ما فاتك من تلك الخيرات تتحسرين.

ليتك يا نفس على ذلك الفقد المتكرر تتأسفين، ليتك يا نفس على ذلك المقدار المنقضي من الأجل تحزنين.

كيف فات ذلك الزمان ؟ بأي خير صعد به إلى الملك الديان؟ كيف فات ذلك الزمان، ماذا صحب ذلك الزمان من الأعمال الصالحات ؟

لعلك بديوان الآلاء تعتنين.. لعلك لأنعم الله تعالى تذكرين.. لعلك لتلك الآلاء تشكرين.

وهذه النفس المتذكرة لما فات، المتحسرة على ذهاب الحسنات، المتشوفة إلى إصلاح ما تستقبل من الأوقات، لم تزل في الحسرة على فوت الحج، لم تزل لذلك ذاكرة غير ناسية.

لم تزل لما يؤتاه الحجيج من المغفرة والإنعام، لم تزل آسفة على فقد ذلك، لا يغالبها على نسيانه حدث أو ذكر مما يكون.

ومن فاته الحج فتأسف على فقده، كان من شأنه أن يتلفت إلى مقاصد الحج لتحصيلها. فإذا كانت عبادة ذات مناسك معلومة، فإن لتلك المناسك أغراضا ومقاصد.

فإذا فات التشرف بتلك المناسك، فلا يفوت ما توصل إليه من الأغراض والمقاصد.

وإن مقصود ذلك النسك رحلة القلب إلى الله ﷻ، وتوطنه في مقام الطاعات، وسآمته من الغفلات والشهوات، وانتزاعه من المخالفات والسيئات. فمن فاته ذلك النسك، فحقه أن يجعل أغراضه ومقاصده نصب عينيه، يتكلفها ويسعى إليها، ويسلك السبل لتحصيلها.

قال بعض السلف : ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمائة حجة.

فإذا كان الحج إلى البيت الحرام من أفضل الأعمال، وكان عوض الجهاد للعاجزين عنه، الفاقدين لآلاته وأسبابه، فإن لذلك النسك غرضا.

إن من أغراض ذلك النسك الانفكاك عن الحرام بالفطام عن المباح من الشراب والطعام وغير ذلك. فإذا كانوا في الحج يتعففون عن الحلال من الشهوات، فإن مقصود ذلك التوصل إلى ترك المحرمات. فمن تأدى منه ذلك النسك ولم يزل في كسبه شيء من حرام، فما بلغ غرض تلك المناسك.

ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمائة حجة.

ذلك الحج المتكرر الذي لا يكف النفس عن الحرام، ولا يحجزها عن الشبهات والمكروهات والآثام.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : **أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به المُرْسَلِينَ، فقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟!»**

فإذا كان طلب الحلال فريضة بعد الفرائض، وكان التماس أطايب المطاعم شريعة تعبد الله ﷻ بها المؤمنين، وجعل لهم قدوة في الأنبياء والمرسلين. فإن تفويت ذلك يعني ضياع الأعمال، وانبناءها على غير أساس وثيق. فإن أساس هذه العبادات ما يقوم بفعلها من الغذاء والطعام والشراب.

فإذا كان ذلك حلالا بقي الجهد في إصلاح تلك العبادات، والوصول إلى مقاصدها. وإذا ذهب ذلك الأساس لم يكن للبنيان وجود أصلا.

فهذا الرجل الذي يطيل السفر أشعث أغبر قد أتى بعبادة شق فيها على نفسه، وترك فيها أسباب راحته، فحصل صور التجرد والإخلاص في الظاهر، لكن فاته أن ينبني ذلك على أساس حلال. فهو يرفع يديه طالبا داعيا، متوسلا بظاهر ذلك العمل. هو يطيل السفر أشعث أغبر لكن لما كان مطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام كان أبعد شيء عن إجابة دعائه، فأنى يستجاب لذلك ؟

ومجانبة الحرام تعني السير قبل ذلك في طريق معلوم من طرق الصدق في معاملة الله ﷻ. فلا يبلغ العبد أن يتجنب الحرام حتى يتجنب قبل ذلك المكروه ولا يبلغ أن يتجنب

المكروه حتى يبلغ ما فيه احتمال وشبهة، حتى يدع الاستكثار من المباح. فإذن سيره إلى الخلاص من هذه الآفة يلزمه.

أولا : بالتعفف عن المباح والاستكثار منه. فإن أول الداء محبة ذلك المال ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفَجر : ٢٠] "لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال". فأول الإصلاح الزهد في ذلك المال، والشح بالأوقات أن تبدد في تحصيله إذا حصل ما فيه كفايته.

"قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه". فمن فاته ذلك وسعى بعد تحصيل الكفاية في طلب مزيد من المال فقد ضيع ذلك الزمان الذي لا يعوض، وفوت شرف التقرب إلى الله تعالى بالعبادات في هذه الأوقات، ففات مقدار من تقوى الله تعالى بحسب ذلك. فإذا فعل ذلك فإنه

لا يملك نفسه ـ إذا ألقي في قلبه محبة المال ـ أن يتورع من أي جهة نال ذلك المال.

فيقع بذلك في الشبهات، قال ﷺ " إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بيِّنٌ بينهما أمورٌ مُشتبِهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس فمنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ استبرأ لدِينِه وعِرضِه، ومن وقع في الشُّبهاتِ وقع في الحرامِ، كالراعي يرعى حول الحِمى يوشكُ أن يرتعَ فيه". واتقاؤه الشبهات إنما ينبني على ورع في قلبه وخوف.

فليت من فاته الحج يتفكر في مقاصده، وليت من فاته التشرف بتلك المناسك أن يسعى إلى مقاصدها.

"الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام" وذلك أن من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه لم يبق عنده ما عليه يسأل " من أين اكتسبه وفيم أنفقه"

أما ذلك الذي بعدما أسلم جمع تلك الأموال الطائلة فإنه لموقوف في الحساب يسأل عن تلك الأموال وما بذل فيه من النفقات.

فليته أن يتشوف إلى الحج إذا حصل مقاصده، ليته يصلح سيره إلى تعالى بتنقية أمواله من الكسب الحرام، فإن قبول عبادته لموقوف على ذلك. فإن من أطال السفر أشعث أغبر فمد يديه إلى السماء لم يقبل منه لذلك الحرام في مطعمه ومشربه وملبسه وفيما غُذى به بدنه.

فيا ليت يا نفس بديوان الآلاء تعتنين، فإذا أنت في تلك الآلاء تغمرين، وإذا الإحساس بتلك النعماء طيب عيش الموحدين فيكونون عن الله تعالى من الراضين ويكونون لأعمالهم محتقرين، فما تبلغ تلك الأعمال في شيء من تلك الآلاء. ضعفت تلك الأعمال ثم ضعفت أن تبلغ قياما بحق

نعمة واحدة من تلك النعماء. فضلا عن كون تلك الأعمال مطلوبة ـ لو كانت ـ وفاء بتعظيم الله وإجلاله حق جلاله، وهي كذلك مطلوبة ـ لو كانت ـ لإذهاب أدران تلك المخالفات، وأقذار تلك المعاصي المحرمات.

والعناية بديوان الآلاء كما يجلب السرور على القلب والرضا عن الله ﷻ فكذلك تجلب الإشفاق والوجل من قلة وضعف ذلك العمل، فيكون ذلك شحذا لعزائم الساعين إلى الله تعالى واستخراجا لقواهم في الطاعات والعبادات، فضلا عما بنتج ذلك من صفاء القلب تجاه الإخوان، وذهاب ما في القلب من الشحناء والتنافس على الدنيا والبغضاء.

فاللهم آتنا الإقرار بنعمك. اللهم ارزقنا الإقرار بنعمائك. اللهم ارزقنا حسن الثناء عليك بها. اللهم آتنا حسن الشكران

لها. اللهم ارزقنا استعمالها فيما يقرب إليك. اللهم آتنا العياذ بك أن ننسيها إلى غيرك. الله أوزعنا شكر نعمتك.

• الجمعة ١١ يوليو ٢٠٠٣

إصلاح الصلوات المكتوبات

ما أحسن مايسوقك الزمان إليه. إنه ليحملك إلى مواقع التوبة ومواضع الإنابة، فإذا انقضى زمن من تلك الأزمان توجه القلب إلى التفتيش في حق العبودية الذي كان. هل كان كما يحبه الله تعالى، أو كان مثل سوابقه في الزمان الذي ولى ؟

وحمل الأيام لك إلى أزمان التوبة متكرر لا ينقضي. فما ينقضي زمان حتى يصحب رمضان معه، فإذا ذهبت أيام رمضان لم يبخل الزمان بأيام ذي الحجة التي تكون بعده.

والمقصود في ذلك التفتيش في حق العبودية في الزمان الأول، وفي حق العبودية بعد انقضائه، وفي حق العبودية في الزمان الذي يتبعه، وفي حق العبودية بعد انقضاء ذلك الزمان.

فيا أيها المنعم بنعمة الإمهال، الذي يحملك الزمان ولا يتجشم مشاق ذلك الحمل، بل تساق إليه سوقا، فأنت لم تزل في موضعك الذي أنت فيه. وإذا الزمان ينقلك من موسم بر إلى زمان إنعام وإطعام.

فما الذي صنعت في موسم البر الذي كان ؟ وما الذي نالك من ذلك الإنعام والإطعام ؟

استقامة السير إلى الله تعالى، لما كان ذلك السير هو قطع مسافات الزمان، فاستقامة ذلك السير موقوف على اعتبار ما اشتمل عليه ذلك الزمان من مواسم المغفرة. وموقوف على

محاسبة النفس على ما كان منها في كل موسم من تلك المواسم.

فيا نفس هل تذكرين ما كان في رمضان ؟ نعم تذكرين.

لو فاتك يا نفس ذكر ذلك، هل كان في رمضان العطاء والإطعام؟ أو كان في رمضان ما علمت من العطاء والحرمان؟

تذكري يا نفس ذلك لا يفوتك ذكره.ويا نفس تشوفت لبلوغ ما بعد رمضان من أزمان اليقين والإيمان، فبلغت يا نفس أيام ذي الحجة الميمونات، فما الذي كان منك من الأعمال الصالحات؟

لوكان ثم تغيير عما فات، لأصبحت الآن في حال غير الحال الذي أنت فيه.

فلأنت الآن في حال تشبه ما فات. فذا دليل على أن الذي كان في أيام ذي الحجة من الفقد والحرمان مثل الذي كان.

فيا نفس كيف نسيت ذلك ؟ كيف لا يعاودك التفكر في سبب ذلك الفقد وتوابعه ؟

كيف ينقضي ديوان يومك وأنت في كل هذه المفقودات لا تتفكرين، لا تتأسفين، لا تتحسرين.

ثم يا نفس ما انغلقت دون السعادة أبواب الكريم.. بل لا تزال كل الأبواب مفتحة تنادي كل لائم لنفسه، كل متخوف من عاقبته، كل راج لإصلاح آخرته.

فممن يا نفس كنت من أولئك المذكورين ؟ ومن أي هذه الأبواب تدخلين ؟

أليس قد سيق إليك أعواض تحصيل ما فات وفي تلك الأعواض إصلاح السير وجده، وإصلاح القلب وهدايته ؟

فأخذت تلك الأعواض يا نفس فاستقمتي ؟ أو فاتت تلك الأعواض مع انقضاء ذكرها، وبقيت في الشهوات، بقيت ياحمقاء في الغفلات، بقيت في النزوات الزائلات. فأخرتك السير إلى المطلوب.

وينقضي يا حمقاء يا غافلة زمانك، فتفرحين بانقضاء ذلك الزمان وغفلت، فانقضاء ذلك الزمان هو انقضاء تلك المهلة وهو زوال تلك النعمة. لا تشعرين بنعمة الإمهال.. لا تحسين بعطاء الله في إبقائك.

لو أدركت يا نفس نعمة الإمهال تغير حالك، فبخلت بذلك الزمان أن يذهب سدى، لو تذكرت يا نفس أن الموت قريب ما بقيتي على الذي أنت فيه. لكن تتجاهلين. تتغافلين، وتظنين ذلك الموت بعيدا وهو ليس ببعيد.

فيا نفس ما الذي صنعت في إصلاح الصلوات المكتوبات ؟ أليس عنوان ذلك الحال الجليل الذي يكون في الأذكار دبر كل صلاة من هذه الصلوات ؟ فوجدت ذلك الحال الجليل الذي ذكره رسول الله ﷺ «**تدركون به مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَا يُدْرِكُكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْه**» فكان ذلك ؟ لو وجدت ذلك الحال المنشود بعد الصلوات في تلك الأذكار المباركات، لتحقق ذلك الموعود، ففات يا نفس ذلك الموعود. فما زلت في هذه البداية موقوفة، وما زلت مخاطبة بذلك الخطاب. إن ذلك يعني إصلاح الصلوات المكتوبات.

إن ذلك يعني غنيمة عظيمة لا استدراك ولا تعويض لها إذا قدر لها الفوات.

ثم يا نفس علمت أن إصلاح تلك الصلوات موقوف على إصلاح بداية هذه الأعمال والوظائف الميمونات، وأن ذلك مرتكزه على إصلاح صلاة الغداة، ليكون من بعدها مجلس شكر، يكون من بعدها مجلس شكر، يكون بعده صلاة جعلها رسول الله ﷺ «كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»، ففعلت ؟

فلو يا نفس فاتك ذلك وقد فاتك، فكيف يفوتك التحسر على ذلك ؟ كيف يفوتك الحزن على فقده ؟ أليس حق تلك الحسرة أن تكون سببا لإصلاح ما بعد الصبح من الصلوات؟

فإذا لم يحصل ذلك الإصلاح من بركة الانقياد واتباع سنة سيد السادات ﷺ، فلعله يحصل مع انكسار القلب وحزنه لفوات ذلك الفضل الذي يتوقف عليه إصلاح ما بعده.

ثم يا نفس نادى الخلق منادي التغيير، وأصابك من ذلك النداء قدر كبير.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

[الرَّعد: ١١]

نزل البلاء الذي ما كان، وتحقق قضاء ملك الملوك بما فيه من الحكمة والمصلحة والرحمة. وأصابك يا نفس من ذلك ضرورة التغيير ولزوم التحول عن هذا الحال.

فذلك الذي نزل مقت الله وغضبه. سلط الكافرين على ديار الموحدين.

أنت يا نفس عن ذلك تتغافلين، كأنك لا تريدين أن يتردد ذلك العنوان على مسامعك.

نعم سلط الله الكافرين على المؤمنين، بذنوب كانت من أولئك المهزومين. وفتح الله تعالى من بعد ذلك ومن قبله أبواب التوبة إليه وناداهم منادي التنزيل:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

أي فغيروا الذي أنتم فيه حتى يتغير الحكم الذي أصابكم.

فما أصابكم بكسبكم. والله تعالى يقبل توبة التائبين.

وكان ذلك التغيير المنشود تغييرا في الصلوات، وتغييرا فيما بين الصلوات من الأوقات، وتغييرا في حال القلب وتغييرا في حال الجوارح، وتغييرا فيما يكون من أهل الإيمان، بين بعضهم البعض، ومنه يكون التغيير كذلك فيما يكون بين أهل الإيمان وأهل العصيان والكفران.

معالم يلزم اللجوء إلى الله تعالى منها، ولا يتغير الحال إلا من جهتها.

فما لم تتغير الصلوات المكتوبات، فعلى أي شيء تتنزل الرحمات، وفي الصلوات المكتوبات محو الخطيئات ومغفرة السيئات ؟

فإذا ذهب إصلاح الصلوات المكتوبات، فلا محو للخطيئات ولا ذهاب للسيئات.

وإصلاح ما بين الصلوات من الأوقات هو مقدمة إصلاح الصلوات المكتوبات، فلا مفر من استقامة القلب وإصلاح الزمان الذي يكون بين الصلوات المكتوبات.

وبقاء القلب مطويا على ما فيه من العلل والآفات يعني ذهاب الصدق في هذه الصلوات المكتوبات، ويعني الوهم الحقيقي فيما بينها من الأوقات.

فحق إصلاح الصلوات المكتوبات أن يدافع ما في القلب من العلل والآفات. وحق إصلاح ما بينها من الأوقات أن يحلي

ذلك القلب بالأوصاف الجميلات بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله والشوق إلى جنته والسآمة من عصيانه والكراهة لمخالفة أمره، فكم من ذلك المطلوب الجليل قد تحصل؟ ليته تحصل.

ثم إصلاح ذات البين الذي يعني توثيق عرى الإيمان التوثيق المنبني على كمال الشهود.

يرى الله تعالى فعالا لما يريد، ويرى الله تعالى خالقا للخلق وما يعملون.

فإذا ظاهر تلك الأعمال التي تكون من مخلوق إلى غيره إذا ذلك الظاهر لا ينبغي الوقوف معه، فإذا الوقوف معه معطل قاطع.

وينبغي المرور به تحقيقا للإيمان بالغيب، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وهذا أول صفات الفلاح، تحقيق الإيمان بالغيب.

فالإيمان بالغيب يعني أن تجاوز ذلك الظاهر المحدود لتشهد ما وراءه مما لا تدركه الحواس ومما يدلك عليه الإيمان ويوجبه عليك اليقين بالله تعالى.

فهذا يعني أن ذلك العمل الظاهر من ورائه فاعل آخر غير ذلك الفاعل الذي تدركه حواسك، وأن ذلك هو الإله الجليل، وإنما فعل ذلك لحكمة بالغة، لتشهد أسماءه وصفاته وتدرك جميل أفعاله ﷻ .

وتبلغ من ذلك مواقع العبودية التي حصل التنبيه بها، بذلك المقدور الذي كرهته، وذلك الفعل الذي ما أحببته. فإصلاح ذات البين موقوف على ذلك، وذلك أيضا ركيزة

أساسية في إصلاح الإيمان، أن يبلغ ذلك الإيمان الغيب فيتوثق في النفس معتقده، وتستيقن النفس عليه كأنما تشهده وتحسه.

فذلك الإيمان بالغيب الذي يلزم فيه اليقين، إيمان بغير المحسوس، وليس يجزئ فيه عابر التصديق ولا ضعيف الإدراك والإحاطة. بل يلزم فيه أن يبلغ القلب من النفس أغوارها وأعماقها حتى ترى ذلك المغيب موقنة به يقينها بإدراك الشمس والقمر. فترى الله تعالى قاهراً فوق عباده، فعالا لما يريد، لا يشاء الخلق حتى يشاء جل جلاله، ولا يفعلون إلا ما قدره، ولا يتصرفون إلا فيما أذن لهم فيه من التصرف.

ويرى من وراء ذلك اتصاف الله تعالى بالكمال والجلال وإن ذلك الواقع كله بالحكمة والرحمة والمصلحة.

فهل حصل إصلاح ذات البين أو بقي في النفوس الشحناء والبغضاء والتحاسد والتنافس على انقطاع من الشهود وعلى ذهاب من اليقين.

فإذا ذهب اليقين، فماذا يا نفس تنتظرين ؟

أليس ذلك الحكم الذي كان وتكرهين، أليس هو تقدير العزيز العليم ؟

بلى إنه كذلك. للذي صنعت بل وتصنعين.

فمتى يا نفس تتوبين ؟ متى يا نفس تنيبين ؟

وعلمت يا نفس خبر الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه شكواه، ونالك يا نفس من تلك الشكوى مواقع اعتبار.

أليس أول تلك المواقع تغيير شهوات النفس ومحابها ؟ فإنه شكا أنه يشتهي الجهاد ولا يقدر عليه، فأخذتي من ذلك موقع اعتبار أول وهو تغيير مواقع تلك المشتهيات ومواضع

تلك المحبوبات الفانيات. فلم يزل الطريق أمامك يا نفس طويلا. فهل بلغ النفس الاهتمام بذلك ؟ حتى يكون من ضمن مقاصد سعيها ومطالب تحصيلها ؟

ليت ذلك كان من الهموم ؟

وأما الطريق إلى ذلك يا نفس فما خفي عليك، علمتيه، فما الذي منعك أن تسلكيه، أن تسلكي طريق التغيير في حال القلب حتى يرحل القلب عن الشهوات الفانيات وحتى يعشق القلب النعيم في الدور الخالدات. حتى يعشق القلب طاعة رب الأرض والسموات.

ما الذي يا نفس حال بينك وبين سلوك السبيل وما جهلتيه ؟ قد علمت أن ذلك يعني أن تأخذي من الدنيا بمقدار ما به تستعينين على الآخرة، فتصلحي في كل مأخوذ منها النيات، وأن يقتصر ذلك الأخذ على المقدار الذي تتأدى به تلك

الأغراض المباركات، وأن يكون أخذك من ذلك على اتباع سنة سيد السادات ﷺ.

فلعلك تسمعين..لعلك تعِيين ذلك.. لعلك به تعملين.

وكان من ذلك الوصية ببر الوالدين، والمقام مقام التفتيش عما حصل بعد تلك الوصية.

«فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَأَنْتَ حَاجٌّ وَمُعْتَمِرٌ وَمُجَاهِدٌ»

فما الذي كان منك يا نفس من بر الوالدين ؟ لعلك تعملين.

وفي سنن أبي داود عن أبي أمامة بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُعْتَمِرِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»

جواهر ميمونة من كلام النبي الكريم ﷺ.

وهي معالم السير إلى الله تعالى يؤتى إليها من باب أول، فلو لم يوجد باب ثان، فباب ثالث، فأبواب غير محصورة.

فيا نفس فات حجتك على الله تعالى،

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيكُم حُجَّةٌ﴾

«مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا» يعظم شأن الصلاة المكتوبة، ويحرم عوائده ومألوفاته حتى يوفي تلك الصلاة المكتوبة حقها.

«فخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا» طهارة الظاهر والباطن، فما يفرغ وضؤوه إلا وقد عزم التوبة على الله تعالى بعدما غسل تلك الأعضاء بماء الوضوء الذي أذهب سيئاتها وأوزارها.

فمع فعل ذلك الماء يكون سير القلب إلى التوبة. فيغسل وجهه، فيخلق الله تعالى من ماء ذلك الوضوء قوة إزالة

الخطايا التي اقترفها بوجهه، فما أسعد القلب بذلك لو حضر.

فلو حضر ذلك القلب فإن سروره بذلك يعني استحضار ما كان من جوارح وجهه من الاثآم والخطايا حتى يعزم التوبة منها، ثم يغسل يديه فيخرج مع آخر قطر الماء ما كان من خطايا يديه، فيفرح القلب الحي بذلك، ويشكر الله ﷻ على ذلك بعزيمة التوبة ألا يرجع إلى ما كان فكذلك في غسل قدميه، يذهب وينزل مع أخر قطر الماء ما كان من خطايا هاتين الجارحتين.

فليت ذلك القلب يشهد ليرى فضل الله تعالى وإلى توبته يرحل. فإذا فعل ذلك حصل تطهر باطنه وظاهره «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُعْتَمِرِ»

فأما أجره مذكور فيه حديث البخاري : فإذا خَرَجَ من بيته، «لاَ يُخْرِجُهُ» يعني إذا توضأ فخرج إلى الصلاة – «لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلاَةُ» لا تنهره إلا الصلاة، كانت خطواته، «لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً، إِلَّا كتب لَهُ بِهَا حسنة، وَحُطَّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ»، «حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ». فإذا دخل المسجد لم يزل في صلاة ما دامت الصلاة هي تحبسه. وتصلي الملائكة عليه ما دام في مصلاه «اللهمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللهمَّ ارْحَمْهُ» «مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ»

فذلك الفضل المعلوم بعدد خطوه إلى المسجد حسنات مضافات وسيئات ممحوات، فإذا دخل المسجد أجري عليه ثواب المصلي مادام ينتظر الصلاة، مادام تحبسه الصلاة.

فإذا هو حال كونه منتظر الصلاة يشهد ذلك المشهد فتسكن لذلك جوارحه، ويجتمع بالفرح لك قلبه، وتندفع عنه همومه ومشاغله، فيكون ذلك القلب أقرب إلى الخشوع وأدعى للخضوع.

فإذا صلى كانت الصلاة فضلا معلوما، وعطاء غير محجوب، فإذا انقضت الصلاة لم ينقض أجره، ولم ينقطع ثوابه فإذا هو في مدة بقائه في مصلاه الذي صلى فيه لم يبرحه ولم يفارقه، إذا هو قد وكل الله به ملائكته المقربين يحمدون صنيعته، ويدعون الله تعالى له تلك الدعوات المجابة ويطلبون له الطلبات المستجابة.. اللهم صل عليه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، «مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ»

وأما ثواب الحاج المعتمر، ففي حديث ابن عمر «فإن نَاقَتُكَ لا تَضَعْ خُفًّا ولاَ تَرْفَعُهُ إلاَّ كَتَبَ اللهُ لَكَ حَسَنَةً وَمَحَا عَنْكَ خَطِيئَةً»

فترى ذلك المسار الطويل من بيت الفاني إلى بيت الباقي.. من البيت الذي فيه الذنوب، إلى بيت من يتوب، إنها لمسافة طويلة لذلك الحاج المعتمر، بقدر الخطو فيها حسنات ويمحى عنه سيئات. فلو أصلح ذلك المصلي تلك الصلوات المكتوبة، فجمع مساره في كل صلاة في كل يوم خمس مرات أو ما يشبه ذلك في عدد أيام العام لكان ذلك جدير بأن يماثل تلك المسافة الطويلة، فيجتمع له من محو السيئات ما يناظر ذلك الذي محي عن الحاج المعتمر.

« وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ»

لما كانت العمرة مشتملة على بعض أعمال الحج، وكان إصلاح العمرة سبيلا لإصلاح مناسك الحج، فإن ما في العمرة مكرر كله في مناسك الحج.

وكأنما أريد بالعمرة قبل الحج تدريب النفس على وظائفها وإدراك النفس النعيم لحلاوة التعبد بها. حتى إذا تكرر ذلك منه في منازل الحج، كانت النفس أقدر على أيفاء كل نسك حقه.

فكان حق النفس من الاستمتاع بحلاوة التعبد بذلك أتم.

فكان لصلاة الضحى وظيفة مناظرة لوظيفة العمرة. كان لصلاة الضحى في إصلاح الصلوات المكتوبات وظيفة تناظر وظيفة العمرة في إصلاح مناسك الحج وشعائره المقدسات.

يحب ذلك ويرجوه. يحب لك لما فيه من التأسي برسول الله ﷺ، ولما فيه من شكر ما قبله من صلاة الصبح في الجماعة، ومجلس الذكر الذي تبعه.

ويحب ذلك، لكون ذلك ينوب عن شغل لا يبلغه، لا يقدر عليه.

ففي صحيح مسلم، «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»

فيقوم مقام كل هذه الصدقات ركعتان، أو قل أنه إذا صلى هاتين الركعتين، يكون منهما العون على تحصيل تلك التسبيحات والأعمال المباركات.

فلا غنى به عن تسبيح الله تعالى وتحميده وتهليله وتكبيره، وعن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وفي صلاة الضحى التفات لما كان من سابق النعماء، فيكون فيها شكر الله على ذلك.

وفي صلاة الضحى استعانة على ذلك التسبيح أن يكون وأن يقوم بحقه.

وفي تسبيح الضحى شكر نعمة تلك المفاصل والأعضاء التي هي نعمة رب الأرض والسماء

«وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ»

وكان خروجه خروجا عن عاداته وتركا لمألوفاته «لا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ»، لا ينصبه إلا إياه فله مثل أجر المعتمر.

فهو إذن يستعين بصلاة الضحى على إصلاح الصلوات المكتوبات، وعلى إصلاح ما يتبعها من السنن والنوافل المباركات.

وإصلاح الصلوات المكتوبات رحلة إلى الحج الذي عجزت عنه قوى الملوثين بالسيئات والخطيئات.

«وَصَلَاةٌ في إِثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ.»

خبر جميل أن يصعد كتاب إلى عليين. كم تنزلت الكتب إلى أسفل سافلين.

كم اشتملت الكتب على خطايا المخطيئين، على جنايات الجانين.

فلو صعد كتاب إلى عليين، فيا فرح النفس بذلك، فذا موقوف على أمر لا طاقة للنفس به. على أمر غير مقدور

عليه. كلا، بل ذا موقوف على أمر يسير. «وَصَلَاةٌ في إِثَرِ صَلَاةٍ»

يعني أن يكون في النفس محبة الصلاة، فما تنقضي صلاة حتى تتشوف النفس إلى صلاة بعدها.

لم ينقضي في الصلاة الأولى مطالبها. لم تنطفيء أشواقها، فإذا حاجتها إل الصلاة الثانية مثل حاجتها إلى الصلاة الأولى.

«وَصَلَاةٌ في إِثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا» وهي مبنية على حراسة اللسان وأن يكون ذلك الكلام بالمقدار فلا يتكلم إلا بما يرجو غدا ثوابه.

«وَصَلَاةٌ في إِثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ »

فمن اعتنى بالفريضة فصلى قبلها نافلتها فإن ذلك مقدمة إصلاحها، ويصدق عليه «وَصَلَاةٌ في إِثَرِ صَلَاةٍ»

صلاة فريضة في إثر نافلة قبلها لا لغو بين تلك الصلاتين «كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»

وصلاة نافلة في إثر صلاة نافلة، صلاة نافلة رأى العبد منها حاجته، وشهد موعود رسول الله ﷺ له، «فإنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ بِهَا عَنْكَ خَطِيئَةً.»

وصلاة نافلة في إثر صلاة نافلة تكون الثانية شكر لله على الأولى، إنها إذا ما ذهب اللغو بينهما «كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ.»

ففريضة تتبعها فريضة يكون فيها حراسة اللسان، وحفظه من اللغو والآثام، يقال فيها : «وَصَلَاةٌ في إِثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ »

والظاهر أن ذلك الكتاب متفاعل، فأنت ترى فريضة في إثر فريضة، قد حُفظ الزمان بينهما وحُرس اللسان من اللغو والآثام. ترى في ذلك مجاهدة تزيد على نافلة قبلية تتبعها

فريضتها، فكان ذلك الكتاب متفاوت في جلاله وعلو قدره بحسب ما يتضمنه ذلك الفعل من مجاهدة النفس وإصلاحها.

فليتك يا نفس لذلك الخير تقبلين.. ولذلك البر تعملين.. لعلك عنه لا تعجزين. لعل انكسارا يبلغك يا نفس. من فقد ما فات، الفقدان في الأيام والأزمان المباركات.

فهلا انكسارا من ذلك يجئ القلب ويلوح له، فتنكسرين.

فإذ ذاك ينظر الله تعالى إلى قلوب المنكسرين. فإذا طلبت ذلك في أوان انكسارك كان، فهل تتذكرين، هل تتأسفين ؟ هل تحزنين يا نفس على ما فقدت، فالآن الآن تنكسرين. فلعلك إذا انكسرت الآن تعانين، تبلغين. فاللهم قوي عزائمنا على الطاعات.. اللهم حبب إلينا القربات.